

قصص

ليس هناك ما يبهج

عبده خال

قصص

ليس هناك ما يُبهج

عبده خال



ليس هناك ما يبهج

المؤلف : عبده خال

الغلاف : لوحة للفنان حلمى التونى

الإخراج الفنى : د . يحيى عبد الظاهر

الطبعة الأولى يناير ١٩٩٥

الناشر :

الجمع والصف الالكترونى:

٤ شارع العلمين - ميدان الكيت كات - جيزة

ت : ٣٤٤٨٣٦٨

رقم الإيداع : ٩٤/١١٤٠٠

الترقيم الدولي : I.S.B.N.977-5121-67-1

الإهداء ..

إلــى أبــي ..

ذكرى ..

وحــزن..

ولهفة متأخرة .

عبده

رشيد الحيدري

بعد تلك الحادثة غاب رشيد الأعمى من الحارة ولم يعد أحد يعرف مكانه.

تلك الحادثة التي ظلت أياماً غارقة فى أفواه أهل الحى ، يحكيها الجميع للجميع ، ويتبادلون الضحك حتى تهتز كروشهم ، أو تدمع عيونهم ، وبعد أن نضبت ضحكاتهم ، وضمرت تلك الحادثة لكثرة ترديدها ، اشتاقوا لرشيد وتمنوا لو أنه لم يغادر الحى حيث كان يملأ الطرقات بنكاته ، وأغانيه التى طالما سمعوها فى الليالى المظلمة تنبعث من الراديو المحمول على عاتقه .

كانت الحارة تشعر أن لياليها انطفأت ، وأن ثمة مللاً اقتعد ذلك الركن الذى كان يقتعده رشيد ..

ذلك المكان الذى أقسم الجميع بأنه لا زال ينز بعرف المسك ، ذلك الطيب الذى كان يتطيب به رشيد دون سواه من العطور .

وقد بكته أخته كثيراً ، ونذرت إن هو عاد لتذبحن عجلاً ، وتوزعه على كل عابر سبيل .. وتقولت نساء الحى أن هذا النذر لم يكن صادراً من قلبها بنية صادقة ولكن من أجل أن لا يأكل الناس وجهها ويتهمونها بأنها تركت أخاها للضياع دون أن تكلف نفسها بالبحث عنه ، أو إظهار الإلتياع لغيابه وتهامست الجارات بأنها في السر كانت تحمد الله الذى خلّصها من إعالته التي ابتليت بها منذ أن فقد بصره .

وتراجعن عن مقولاتهن حين شعرن أن نساء الحارة افتقدن من كان يسقى بدواخلهن ثمارهن الذابلة .

وفى جلسة جمعت رجال الحارة بمركاز العمدة قال ياسين الدقل :

الله لا يرجع البعيد .. لم يترك امرأة إلا ولاحقها بلسانه .

فعقب العريفه محسن أبو الليل قائلاً :

- الحق يقال .. نصف بنات الحارة تزوجن بفضل رشيد .. ومن المفترض ألا نغضب منه فقد عذره الله فى كتابه حين قال (وليس على الأعمى حرج)

فقاطعه الدقل غاضباً :

- ذلك في الحرب وليس فى نسائنا

فتدخل فى الحديث حسين العمارى محاولاً تلطيف الجو :

- الرجل يرى بلسانه أكثر مما نرى بعيوننا ، ولم يكن ما يقوم به إلا ليعلمنا بأنه لا ينقصه الإبصار .

فرد الدقل :

- ولو تقول على زوجتك أكنت تقول هذا القول ؟!

فصمت العمارى بعد أن تذكر حرقة الدقل حين ادعى رشيد أن زوجة الدقل جاءته وراودته عن نفسه فردها قائلاً :

- أنت لا يقبل عليك إلا الجيف أمثال الدقل .

لكن محسن أبو الليل لم يسكت فقال :

- نعلم جميعاً أن رشيد لم يكن صادقاً فى كل ما يقوله ، لكنه لم يكن ينظر إلى النساء بعينيه المنطفئتين بل كان يعرفهن من خلال أصواتهن ، ومن سيرهن على الأرض ، ولم يتحدث عن واحدة إلا غدت مهوى الأفئدة .. وأذكر أننى كنت أمازحه فى إحدى المرات وطلبت منه أن يصف لى بعض النساء اللاتى كن يعبرن الطريق ، فكان يصفهن بدقة لدرجة أنك تظن أن هذا العمى لم يكن إلا ستاراً يختفى خلفه .

وأمن الجميع على هذه المقولة ، واستشهدوا بأن كثيراً من بنات الحى لم يكنّ محل اهتمام الرجال إلاّ بعد أن تشبب بهن رشيد .

فقاطعهم الدقل غاضباً :

- أنتم تثنون على هذا الماجن لأنه حلى نساءكم في أفئدتكم وتنسون أنه كان خلف كثير ممن تطلّقن من أزواجهن حين ينعتهن بالجيف التى لا يقبل عليها إلاّ الكلاب .

وتركهم وهم يتصايحون به ليرجع ، لكنه مضى يزمجر بين تلك المنحنيات التي غيبته عن أبصارهم .

أصبح غياب رشيد الشغل الشاغل لأهل الحى ، فبعد أن روت إحدى السيدات المسنات التى لا تخطئ رؤيتها أبداً أنها رأته في المنام يلبس رداء أخضراً ، ويغنى بصوت أنثوى ، وفجأة يمسك بالطار ويرقص فى أرض خراب حتى يستحيل نسراً ضخماً يحلق فى الفضاء فارداً جناحيه وحاجباً قطرات الماء من أن تهطل على الحى ، ثم يهبط على أسطح المنازل ويصيح بصوت كالرعد :

- سأجعلها خراباً .. سأجعلها خراباً .

وانتشر هذا الحلم بين أهالى الحى ، فصدقه الكثيرون حتى أن مؤذن المسجد محمد اليوسفى صاح بالمصلين عقب صلاة الظهر :

- ألا ترون .. انظروا إلى السماء ، فالغمام يعبرنا دون أن تحط قطرة واحدة على هاماتنا !!

وبعد ثلاثين يوماً من غياب رشيد ، خرجت الحارة تبحث عنه ، وأقسموا أنهم كانوا يجدون رائحته أينما اتجهوا دون أن يعثروا عليه .

وظلوا لا يمطرون سنة كاملة ، وفى إحدى الليالى أنزلت عليهم السماء ماءً فجاجاً حتى ظنوا أنهم غارقون ، فقالت تلك السيدة المسنة التى تناقلوا حلمها :

- ما هذا الغيث إلاّ لكى يروى قبر رشيد .

وتيقن أهل الحى من موته ، فأقيمت سرادق العزاء وأقبلوا يعزون بعضهم بعضاً ، وأقسمت أخته على ألا ترى النور بعد فراقه ، فربطت على عينيها عصابة سوداء ، وأوصدت بابها ، وركنت فى بيتها تندب أخاها فى كل حين.

ومات رشيد فى ذاكرة الكبار ، وتناسوا حادثته كما يتناسون موتاهم ، وبعد سنين طوال عادت ميمونة تذكرهم به ..

فى البدء قيل بأنها أصيبت بمس ، فلم تكن لتتحدث أبداً وعافت زوجها وأبناءها ، فطرقوا بها أبواب الشيوخ والسادة فلم يزدها ذلك إلاّ نفوراً ، وتحول صمتها إلى هذيان مستمر :

- إنتظرنى يا رشيد .

وانتكست حالتها ، وأصبحت تخرج فى الليالى المظلمة لتجلس فى مكانه ، وتناجيه بحرقة حتى إذا انتصف الليل أخذت تدور فى أزقة الحى بنحيب فاجع :

- لماذا تهرب منى يا رشيد .. انتظرنى !

ويقال أن زوجها كان يربطها بالسلاسل لكنه يفاجأ فى الليل أن قيودها مقذوفة فى مكانها ، وصوتها من الخارج ينتحب :

- انتظرنى يا رشيد !!

ولم يتوقف ذلك النحيب الليلى إلا بنقلها لشهار* لتعاود الحارة مضغ سيرتهما بكثير من اللوعة والحسرة .

***

كان رشيد الحيدرى فاكهة الحى .

ولم يكن العمى يعيق توثبه ، ومقدرته الفذة فى حبك الأقاويل والحكايات ، ولا زالت الحارة تذكر له تلك الحادثة التى جعلت المصلين يتضاحكون متناسين حرمة المكان الذى هم فيه ، ففى إحدى الجمع تأخر الخطيب ، وكان المصلون يتهامسون بذلك ولم يشعر الناس إلاّ ورشيد يتلمس طريقه صوب المنبر ، وقد ألجمتهم المفاجأة ولم يشعروا به إلاّ وهو يقف فيهم خطيباً .. كانت خطبته مزيجاً من النكات ومن المواعظ السيارة على أفواه العامة ، ولم يعرف كيف ينهى خطبته فاستطالت حتى دخل عليهم وقت صلاة العصر ، ولم يتنبه لفوات الوقت إلاّ اليوسفى الذى كان يتحرك فى مكانه متململاً ثم تهامس مع جيرانه في الصف فتحركوا وأنزلوه وهو لا زال يخطب مما حمل المصلين على الضحك بصوت مرتفع .. وأصبحت تاريخاً من تواريخ أهل الحى حيث يقولون ولد فلان بعد خطبة رشيد ، أو يقولون مات فلان قبل خطبة رشيد بأيام .

وقد اشتهر منذ طفولته المبكرة بالشغب ، ذلك الشغب الذى أودى بفقدانه بصره ، وقد روت أخته عائشة الحيدرى هذه الرواية :

لم يسلم أحد من أذى رشيد ، فقد كان صبياً معجوناً بماء الأبالسة كما وصفته أمى والتى روت لها مولّدتها أن وليدها سيكون نقمة ما لم تحجبه

---

*شهار : مستشفى للمجانين يقع في مدينة الطائف

خلال الأربعين يوماً من عمره ، وأكدت على مقولتها تلك بأن الوليد يحمل شارة فى جبينه لا تأتي إلا مع الصبية الذين يمسهم الشيطان أثناء ولادتهم، لذلك ادعت أمى بأن وليدها (سباعى) وسط استنكار النساء العارفات بموعد ولادتها ، ووضعته بلفة قطن ، وغطت وجهه بطرحة سوداء ، وقبل أن تنتهى مدة الحجابة رأته إحدى المسنات ، وكان مغمضاً عينيه ، وفاتحاً فمه، فاقتربت من أمى وأسرت إليها :

- المكتوب مكتوب ، فابنك هذا سيرى بلسانه .. وأنصحك أن تقطرى فى فمه سكر نبات . ولم تكتف بتلك النصيحة بل تحركت صوب الوليد وأزاحت عنه تلك الطرحة السوداء ، وبللت أصبعها بريقها ، وحنكته ، ووشوشت له فى أذنه بكلمات لم يسمعها أحد ، وكانت أمى دائماً تقول :

- رشيد ملسن كالتى حنكته .

وقد بدا لسانه يطول قبل أن يكمل السنتين ، كان ذا لسان زفر ، وكأنه بلل فى بيارات الحى ، فكانت شعائمه تتطاير دون أن تجد لها رادعاً ، وعندما نهض من طفولته الأولى ، وخرج للشارع كان هناك من يشتكي من رشيد يومياً ، ولم يكن ليهدأ أبداً حيث تجده متشاجراً أو محرضاً على شجار .. كان أبى عاجزاً فيما يصنع مع رشيد ، فقد ابتكر أنواعاً شتى من التعذيب ليثنيه عن شغبه فلم يزده ذلك إلا تصميماً فى الإنغماس فى إيذاء الآخرين .

وقد تطور أذاه وأصبح يصعد أسطح المنازل ، ويتربص بالنساء مع أزواجهن ، ففى إحدى الليالى جاءنا جارنا "حتيمش" يغلى غضباً ، وكاد يخلع بابنا من شدة الطرق ، وعندما سمع أبى شكوته غاص فى خجله ،

ووعده بأن يؤدب رشيد بما يليق بفعلته !! وأعطى رشيد خمسة عشر يوماً يتلقى فيها السياط حتى شفع له "حتيمش" نفسه .

وفي إحدى الليالي المقمرة انفرد أبواى بنفسيهما في غرفة منعزلة من الدار ، ولم يكن يدور بخلدهما أن عين رشيد تتربص بهما من خلال النافذة المفتوحة ، وعندما أناخ أبي بلذته سريعاً ، سمع صوت ابنه يصيح به من خارج الغرفة :

- أنا على الرجال ،، فسعلك فحلاً فإذا بقذفك أسرع من حتيمش .!!

وقد كلفته تلك الجملة بصره ، حيث خرج أبي غاضباً ، ومقسماً على أن يطفئ له ضوء عينيه ، ولم تفلح توسلات أمي و(جاهة) الجيران عن ثنيه من تنفيذ قسمه ، فسحق عدة قرون من الفلفل الأخضر وذراها بعيني رشيد ، ليعيش ما تبقى له من عمر كفيف البصر .

وقد ندم أبي على فعلته تلك حينما كان يشاهد ابنه الوحيد ، يصطدم بالجدران وهو يبحث عن طريقه ، وأصبح يقوده إلى أي مكان يريد ، وهو يذرف دموعه ويستسمحه في كل حين ، ولا زال نادماً حتى وافته المنية ، وكان على فراش الموت وهو يلهج باسم رشيد طالباً منه السماح فلا يسمع منه سوى :

= لقد أظلمت عليّ دنيتي ولا بد أن أظلم عليك آخرتك .

***

اكتسب رشيد ثقافة هائلة من خلال المذياع ، وكان شغوفاً بمتابعة الأخبار، فلم يكن يستقر مؤشر (راديه) السوفيتي إلا على الأخبار ، أو التحليلات السياسية ، وقد بلغ به الهوس أن طلب من جاره يوسف أحمد

كاتب المعاريض أن يكتب له رسالة لجمال عبد الناصر ، وقد ارتاب منه يوسف ، وامتنع عن الكتابة مذكراً إياه من هو جمال عبد الناصر :

- أنسيت ماذا فعل بنا جمال ؟

فأخذ يسوسه ، ويتلطف معه في الحديث شارحاً له أن العرب كلهم الآن في خندق واحد ، فاقتنع يوسف بن أحمد وانفتحت شهيته للكتابة ، وأخذ دواته وقلمه الخشبي ، وجلس مع رشيد يدبج خطاباً للرئيس جمال عبد الناصر ، وبعد أن أكمله ، أخذ يقرأه بحبور على مسامع رشيد الذى اشتاط غضباً ، ونهض منفعلاً زاجراً جاره بكلمات نابية أتبعها بتحسف :

- حرام أن تدلق كل هذا الحبر وأنت لا تعرف شيئاً من أمور الدنيا .

وأمره أن ينصرف بعد أن أوصاه :

- قل لزوجتك أن تعلمك قليلاً من حلاوة حديثها .

كانت هذه الجملة كفيلة بجعل يوسف بن أحمد يثور ويمسك بحلق رشيد ملقياً به على الأرض وصاعداً على صدره وموجها لكمات ساحقة على وجه رشيد الذى أخذ يهيل له الشتائم كيفما اتفق ولولا أن المارة تدخلوا وعابوا على يوسف بن أحمد أن يضرب كفيفاً لانتهت تلك (المضاربة) بما لا يحمد عقباه بالنسبة لرشيد ، وكانت من نتائجها أن انقطع السلام فيما بينهما وإن ظلت لسان رشيد تصيب ذلك الجار بأذى كلما سمع صوته .

كانت نافذته الوحيدة على العالم الراديو حيث كان يتنقل بمؤشره خلف الأخبار ، وإذا مر به المارة يتندرون به :

- ما آخر الأخبار يا رشيد ؟

فيرد بفرح :

- تجمع كل الإذاعات العربية بأننا طوقنا إسرائيل ، وبأننا على أبواب فلسطين .

فيتركونه يواصل سرد تفاصيل الأخبار ، وماتقوله كل إذاعة على حدة حتى إذا شعر بأن ليس أحداً بجواره ، غص بالحديث حتى يتوقف تماماً .

وكان يتلمس شيئاً إضافياً ممن يجالسهم ، أو يذهب إلى مجالسهم وعندما يجدهم يتحدثون في أمور أخرى ، يبادر بالحديث عما يدور على جبهات القتال ، فيسكتونه بضيق :

- مالنا ومال ما يحدث خارج بلادنا يارشيد .

فيتركهم بعد أن يشبعهم لعناً ، ويشبعوه سخرية .

وفي ذات مساء أخذ يجوب الأزقة بصوت باك :

- أيها النائمون اتركوا مراقدكم فلن تقوم لنا قائمة بعد اليوم .

في تلك الليلة أصيب بجروح عديدة في أجزاء متفرقة من جسمه ، كان أخبثها شج اعتلى جبهته قليلاً حينما اصطدم بمصباح البلدية المعلق بزاوية الشارع ، كان صوته محروقاً حفز الكثيرين على القفز من مخادعهم والخروج لمعرفة ما حدث ، كان قد استقر ركضه ببرحة السكري وإن لم يهدأ تهيجه حيث كان لا يزال يلهث والزبد يتطاير من بين أشداقه ، وذراعاه منفتحتان كمن يبحث عن أي شيء ليمسك به وينوشه حتى إذا شعر بهم يلتفون والكل يجذبه باتجاهه :

- ماذا حدث يا رشيد ؟!

صاح مولولاً :

- لقد خدعونا- من هم ؟!

فجثى على ركبتيه وصاح بأعلى صوت :

- لقد قصفوا الطائرات وهى رابضة فى مدرجاتها

- أى طائرات ؟!

- ألم تسمعوا جمال .. لقد أعلن الهزيمة

فاغتاظ أحد الحاضرين وصاح به :

- (يلعن أبوك على أبو جمال) توقظنا من منامنا من أجل كلام فارغ كهذا .

وتصايحوا به زاجرينه من التمادى فى صراخه ، فانحنى على الأرض وحثاهم بالتراب وهو يصيح :

- إسرائيل ستتنفس هواءنا يا أولاد الكلب .

فتركوه يهذى وهم يلعنونه فى كل كتاب ، وعادوا إلى مخادعهم بينما ظل يجوب الأزقة صائحاً بصوت محروق :

- لن تقوم لنا قائمة بعد اليوم .

بعدها انقلب تماماً ولم يعد يستمع إلى الأخبار البتة ، وأصبح مولعاً بسماع الأغانى النسائية .

* * *

كان يجلس تحت عمارة الجوهري بثوبه الأنيق ، وطاقيته المشغولة بإتقان بخيوط القطن والمزينة بصواري ذات أعلام مثلثة الشكل وثمة جملة كتبت بشكل دائري على طاقيته (المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين) وإذا سئل عن تلك الجملة تضاحك وأردف :

- لكي أوهم من لا يعرفنى بأني أرى

كان يجلس فى مكانه وقد تخلص من وساوسه القديمة ولم يعد من هم لديه سوى سماع الأغاني وإطلاق النكات الماجنة كيفما اتفق .

وقد لاحظ أهل الحي ذلك التغير المفاجئ الذى أصاب رشيد حيث أصبح يعتني بهندامه كثيراً ، ويطلق الغزل المكشوف بدروب النساء العابرات بمجلسه ، واستعاض عن الراديو بأداة تسجيل التي وصفها بأنها خير من الراديو التى تبث ما تشتهي ، وقد تدرب على وضع مكرات التسجيل بعناية وكان يذهب يومياً إلى سوق الخاسكية لمعرفة آخر ما غنت ليلى نظمي ليقتنيه ، وقد تسرب خبر هيامه بها حين أسر لأحد جلسائه الخلص أن صوتها وحده لكفيل بجعله ينتصب حتى يريق على نفسه ماءه الدافق ، لذلك يظل طوال يومه وهو يحرك مؤشر الراديو بحثاً عنها فى أي إذاعة وعندما أعياه التعب والبحث أقدم على شراء جهاز التسجيل بمبلغ باهظ كلفه أن تنازل لأخته عن ميراثه فى البيت الذي كان يشاركها السكن فيه ، وقد بدا هيامه بليلى نظمي بلغ حداً جعل رجال الحي وصبيانه يطاردونه بأصواتهم كلما لمحوه :

- ادلَع يا رشيد على وش الميا

وكان يقابل تلك الأصوات بنثر الحجارة في أي اتجاه حتى أنه قد أصاب الكثيرين من المارة دون أن يكون لهم يد فى تلك التحرشات التي دائماً ما تأتي لإثارته والاستمتاع بأذيته كانتقام من لسانه الذي لم يسلم منه أحد في الحي .

ويعود إطلاق تلك الأغنية على مسامعه حتى غدت عيرته بين أهل الحي لما روى عنه من أنه بعد أن تغلغل بأحشائه هواها ، لم يجد بداً من

مراسلتها ، فقام بتسجيل شريط ضمنه أجمل قصائده وحكى لها فيه عن هيامه ولوعته بها وبعث به إليها ، ولا زال ينتظر ردها حتى سمعها في آخر أغانيها ترد عليه بأغنية :

- ادلع يا رشيد على وش الميا

وظل يسمعُ هذه الأغنية بانشراح ودندنة مترنمة إلى آخر لحظة من مغادرته للحي .

* * *

كان رشيد رجلاً طويلاً ذا ملامح تنضح بالملامح ، يعتني كثيراً بهيئته ، ويجبر أخته العانس على تشذيب ذقنه وشاربه ، وإشباع عينيه المفتوحتين بالكحل ، ورش قارورة عطر المسك على بدنه حتى إذا ارتدى ملابسه نز المسك من إبطيه وصدره .. ويزداد حرصه على الإهتمام بأناقته واستكمالها إذا كان ثمة زائرات يتواجدن عند أخته ، وكانت نساء الحي يتباسطن معه فى الحديث ، ويستملحن ظرفه لدرجة أنهن يطلبنه لمشاركتهن حديثهن .

وتحدث رجال الحي عن أن "رشيد" فسد بعد مجالسة الحريم فلم يعد ذلك الإنسان المهتم بما يحدث خارج محيط النساء حتى أنه أصبح خبيراً بشئونهن وعالماً بخبايا أسرارهن ، وأنه أصبح يستمع إلى شكواهن من أزواجهن ويبدى لهن النصح فيما أشكل عليهن ، ويدللوا على فساده بصوته الذي لان وتموج حتى غدا كصوت أنثى محترفة البغاء .

وتحدثت نساء الحي عن أن "رشيد" أصبح رقيقاً كالماء ، وأن حديثه يذهب الكرب ويزيل أكوام الحجارة التي يلقيها أزواجهن بدواخلهن حتى أصبحت كل أنثى بالحي تتمنى أن يحدثها رشيد لبعض الوقت ، أو أن ينشد

فيها كلاماً مما يقوله فيمن يرق قلبه لها .

انغمس رشيد فى عالم النساء ، ولم يعد هناك متسع من الوقت لأن يعمل شيئاً سوى متابعة أخبارهن ، والسؤال عن أحوالهن .. وكان فى عالمه هذا يميز بين كل واحدة فهناك المرأة الأثيرة لديه ، وهناك المرأة المشفق عليها ، وهناك امرأة لا يطيق سماع صوتها وإن قيل له أن جمالها يسقط الطائر من عليائه ، وكان ميزانه في قرب المرأة أو بعدها من قلبه نعومة وتموجات صوتها ورنة ضحكتها ، وكان دائماً يردد :

- إذا لم تكن المرأة قادرة على أن تحركك بصوتها فهي أشبه بالطبل المثقوب الذي ينفرك ويؤذي سمعك .

ومع كثرة مجالسة النساء أصبح يميز كل واحدة من صوتها ويرسم لها صورة بخياله ، وكان دؤوباً على معرفة خبايا هذا العالم الذي وصفه بأنه عالم الأحياء .

من هذه المجالسة نبتت لديه هواية غريبة حيث كان يجمع عطور النساء في غرفته ولكل عطر اسم امرأة وصورة ما في خياله عن صاحبته ، وقد تولدت هذه الهواية ، حينما عاتبته إحدى السيدات من كونها لا تراه بالرغم من تواجدها المستمر ببيت أخته في كل ظهيرة ، فاعتذر إليها بأنه في مثل هذا الوقت يخرج من البيت هرباً من الحر والضيق إلى الإلتجاء بظل عمارة الجوهري حيث الهواء الذي يبدد تلك الرطوبة التي تفسد رائحته لكنها انساقت في عتابها ولم ترضها حجته ، وسرعان ما لمعت في مخيلته تلك الفكرة فاقترح عليها أن تمنحه عينة من عطرها حتى إذا عبرته عرفها من رائحتها ، فاستجابت لطلبه ومنحته زجاجة صغيرة من عطرها ، فكانت إذا

عبرته رفع صوته بالأغاني والترحيب ، وحمل (راديه) على عاتقه ، وعاد إلى البيت ليجدها في انتظاره فيبادلها الأحاديث ، والنكات ، وسرعان ما سلك هذا المسلك مع بقية النساء حيث طلب من كل واحدة أن تزوده بعينة من عطرها حتى أصبحت غرفته ممتلئة بأنواع شتى من العطور ، وكان إذا وجد أن اثنتين اجتمعتا في عطر واحد طالب واحدة منهما بتغيير عطرها بحجة أنه لا يليق بجمالها وأنوثتها الطاغية ، وقد استجبن لطلباته مسرورات ، فأصبح لكل امرأة عطرها الخاص يعرفها من خلاله ، أما اللاتي يصفهن بالطبول المثقوبة فقد حرص أيضاً على معرفة عطورهن كي لا يقع مع واحدة منهن في موقف لا يحب لنفسه أن يقع فيه ، وعندما وجد أن عطور بعضهن تتشابه مع من يحب عمد على توحيد عطرهن ، فكان يحرضهن على شراء عطر ذي رائحة نفاذة يجلب الدوار ويتم تجميعه محلياً من مجموعة عطور ، ذلك العطر الذي أصبح فيما بعد يضرب به المثل في قبح الرائحة فيقال :

- أقبح من رائحة طبول رشيد !!

وأصبح رشيد يحمل بجيبه عدة زجاجات لعطور متنوعة يتباهى بها بين جلسائه حيث يخرج كل زجاجة ويسمى صاحبتها أو يرمز إليه بعد أن يمرر تلك الرائحة على أنوفهم يبدأ في سرد حكاية كل عطر ، فلكل عطر امرأة ومغامرة يرويها بتدفق .

كانت عائشة امرأة عانساً تستظل بأخيها الأعمى ، وتحرص على أن تكون محبوبة من قبل الجارات ، وقد امتازت بطيبة متناهية جعلت بيتها سمراً لكثير من نساء الحي ، وكانت تنهى أخاها من أن يغشى مجلسها إلاّ

أن زائراتها كن يستمتعن بحديثه ، ولا يمانعن من وجوده بينهن حتى وإن استطال لسانه فيما يخجلن من التحدث فيه ، وكان رشيد يتبرع بإيصال أي امرأة تتأخر ليلاً عند أخته ، ويستغل عماه ليمسك بيد من يوصلها طوال الطريق ، وفي هذه الأثناء يترك أنامله تعبث براحة من يوصلها حتى إذا أحس بنفورها اعتذر بأنها عادة سخيفة تعود عليها ، ومن صمتت فإنه يتجرأ لأن يمسك الساعد ، والأكتاف وما تحتهما ولا يصل إلى بيته إلاّ غارقاً في مائه المتدفق دوماً بسبب أو من غير سبب .

وروت إحدى جليسات أخته أن "رشيد" غادره الحياء وأصبح يظن أن كل امرأة متيمة بهواه ، وقد حملت على أخته ، وتشاجرت معها لوقت طويل ، ووصفت أخاها بالتيس المخصي الذي يظن أن به من الفحولة ما يمكنه من الركض خلف أغنام الحي بينما هو لا يقدر على التبول بشكل مستقيم ، وقد أغاظت هذه الشتيمة "رشيد" الذي كان يسمع تلك المرأة وهي تتشاجر مع أخته ، فخرج من غرفته حتى وقف في وسطهما ، وحل مئزره ليظهر عضوه المنتصب بتوتر وصاح بتلك المرأة :

- هل تقسمين أن هذا لتيس مخصي .

فولولت المرأة ، وخرجت وهي تشتم أباءه وجميع رجالات الحي الساكتين عن هذا الأعمى الذي تلسن على كل النساء دون أن يردعه أحد .

***

لم تكن تروق له سوى ميمونة والتى وصفها بأنها ريحانة الحي .. كان شغوفاً بها لدرجة أنه انتقل من مكانه المعتاد ليصبح مكان جلسته مجاوراً لبيتها بالتمام ، وزاد تيهاً بها حين أقسم على أخته أن تصفها له .

كان عشق ميمونة قد نخر عظامه فلم يعد يكترث بأحد ويجاهر بعشقه نهاراً على الملأ حتى تحول إلى مراهق صغير ، فنظم فيها القصائد الركيكة التي ما أن يشم رائحتها أو يسمعها تنادي على أحد أبنائها الصغار حتى يسيل بتلك الأشعار الساذجة على مسامعها .

وقد حاول أحد الجيران أن يثنيه عما هو عليه ، مذكراً إياه بحبيبته ليلى نظمي التي قد يسوءها تصرفه هذا فرد عليه بإيجاز :

- لقد أجاز الشرع أن أتزوج بأربع وأنا لا زلت أعشق اثنتين !!

وأقسم لو أن زوجها يطلقها ليبيت بها بعد اكتمال العدة مباشرة .. لم تكن كل المحاولات التي بذلت كفيلة بجعله يرتدع عن مضايقة ميمونة ، وكان آخر تلك المحاولات ما قام به زوج ميمونة ، ففي ذات ليلة خرج إليه مستغلاً فراغ الشارع من المارة وأمسك به وأشبعه ضرباً ولم يتركه إلا جثة هامدة يتقطر منها الدم من كل مكان ، وعلى العكس كانت هذه المحاولة هي الشرارة التي أحرقت الهيام في صدر رشيد ، وقد ادعى أن ميمونة متيمة به وقد أخبرت زوجها بذلك وطلبت الطلاق منه لترتبط به ولأنه ليس رجلاً لديه كرامة فقد أصر على أن يبقي ببيته امرأة لا تحبه .. وقد زاد هذا اليقين عند رشيد حينما تغيرت معاملة ميمونة له ، وأصبحت تناغيه إذا كان الشارع مقفراً ، وتخرج لسماع أحاديثه في أنصاف الليالي ، تمادى رشيد في طلباته فقد كان كل يوم يطلب شيئاً فتمنيه بالغد إلى أن طلب أن يجالسها ، فماطلته كثيراً وأخيراً رضخت لطلبه ، ومنحته موعداً

***

كان الموعد عصراً حيث تكون الحارة في أوج صخبها ، فالباعة المتجولون

يملأون الشوارع بندا ءاتهم وصيحاتهم ، ورجال الحي متناثرون في ساحـ متقاربة للعب الضومنة أو لتبادل الأحاديث ، والأطفال يمرحون بألعابهم المختلفة .. كان وهو يسير إلى الموعد يسمع كل هذا الضجيج وثمة طائر يحلق في داخله فيغطي على كل هذا الصخب ، كانت الإشارة فيما بينهما أن تخرج ميمونة وتنادى على أحد أبنائها ليتحرك رشيد في الحال ويدخل إلى داخل البيت .. عندما بلغ المكان سمع الترحيب من مجموعة كبيرة من الناس وكان هذا محل ضيق شديد بقلبه ، ووجد أنه لو صاح بهم أن يبتعدوا لبقوا مدى الدهر ، كان همه أن يبعدهم عن هذه الناحية بأي صورة كانت وبينما هو يفكر فإذا برجل من آخر الشارع يعرف صوته تماماً يصيح منادياً:

- امسكوا حرامي

فتقافز الرجال والأطفال ملبين تلك الصيحة ، في تلك اللحظة سمع صوت ميمونة وهي تنادي على أحد أبنائها فتحرك على عجل حتى كاد يقع.. كان يشعر بدقات قلبه تتعالى حتى تتحول إلى دق طبول مخيفة ، ولم يهدأ إلا عندما أحس بيد ميمونة وهي تسحبه بجوار الباب ووقفت بجواره وقالت له :

- ها أنذا أمامك ماذا تريد مني .

فتخلى عن ارتباكه وأخذ يبثها أشواقه ، كان ينتظر منها أن تبادله اللوعة ، وتتصبب بشوقها ، ويحلم بأن تضع رأسه على صدرها وتسرح بأناملها بين خصلات شعره الناعمة لكن هذا الحلم انطفأ وشعر بالإشمئزاز حين قالت له :

- أريد أن أرى فحولتك .

انتفض وانتابه الضيق ، وأحس بقلق يعتريه ، لكنه تجاسر على خوفه واقترب منها وحمل وجهها بين راحتيه وظل لوقت يمرر أنامله على تضاريس وجهها ، وبصوت متهدج حمل كل شوقه إليها :

- اعلمي يا ميمونة .. أنني أشتريك بالدنيا ، وأنني سأنتظرك لآخر لحظة من عمري .

فاجأه صوتها الصارم :

- دع هذا جانباً ، فأنا أريد أن أرى فحولتك .!!

وعندما تباطأ ، انساقت في غنج بكر تطالبه بذلك ، فضمها إلى صدره، وسكب تأوهات عميقة فتملصت من بين يديه ، وأخذت تخلع له ملابسه قطعة قطعة ، كانت كل قبلاته تطرقع في الهواء فكلما شم رائحتها وحاول الإمساك بها ، طالبته بالتمهل حتى أصبح غير قادر على شيء سوى التلذذ بما يمكن أن يحدث له لأول مرة ، فجأة جاء الطرق عنيفاً على الباب ، وصوت زوج ميمونة يلعلع من خارج البيت :

- افتحوا الباب .

ارتبك رشيد ، وتمتم لميمونة :

- إنني أشم رائحة هذا الثور منذ أن قدمت

فبادرته ببرود :

- لا تكترث

كانت ثابتة ، تتصرف بآلية وخبث ، وبهدوء قادته في دورة دائرية وهي توصيه :

- اسمع سأتركك في الحوش المجاور فلا تحدث صوتاً حتى يذهب ، فأنا

لا زلت راغبة في رؤية فحولتك .

وقادته من يده ، وطالبته أن يعبر عتبة الباب المؤدي للحوش ودفعت به للأمام فشعر بالهواء يلفح جسده العاري وقبل أن يستوى في وقفته ، كان أهل الحارة يقفون عليه ويتصايحون :

- رشيد ما الذي أخرجك عارياً

فأحس بهم يحيطون به من كل جانب ، فأخذ يستر بيديه عورته ، إلاَّ أن عصا كانت تنخس مؤخرته وصوت زوج ميمونة يرتفع :

- ألم أصح بكم .. أمسكوا الحرامي .. هاهو من يتسلل يومياً إلى بيوتنا والحمد لله لقد استطاعت زوجتي أن تمسك به عارياً .

كان رشيد في وضع يرثى له وهو يسير محاولاً ستر عورته بيده ، وثمة قضيب ينخس مؤخرته ، وأهل الحي يسيرون من خلفه يزفونه بالضحكات المستهجنة .

١٤/١٢/١٤١٤هـ

□□□

أناشيد الرجل المطارد

دفعني حتى كدت أن أقع على وجهي .. كان صوته ثقيلاً كجزمته :

- يا لص !!

عندما تجاوزت طفولتي الأولى دخلت إلى (صندقة) للدجاج ، حيث كان الكون يجمع أشيائه ، ويدلف لبوابة الظلام بحذر .

في محاولاتي للإمساك بالدجاج كانت تتقافز من أماكنها مصدرة أصواتاً حادة ، ولكي لا يكتشف أمري فقد اكتفيت بما قبضته يدي ، كنت أمسك بخمس دجاجات كيفما اتفق ، وهممت بالخروج من (الصندقة) قبل افتضاح أمري ، لكن بابها أغلق من الخلف بمزلاج بينما كان ثمة وجه ناري يتربص بي من خلف الشيش ويصيح بحنق :

- يالص !!

وغادرني وهو يمعن في شتم أهالي ، ومن هم على شاكلتي .. كنت ملصقاً وجهي بذلك الشيش وعيناي تبحثان عن أي عابر سبيل كي أتوسل إليه أن يفتح لي باب تلك (الصندقة) لكن تلك الأزقة كانت خالية من المارة، فأخذت أبحث عن منفذٍ أهرّب من خلاله جسدي الناحل .. في أعلى (الصندقة) استقرت فجوة نفرت من أطرافها مسامير صدئة ، وقد غطيت بصفيح رقيق لم يثبت بأي شيء وإنما قذف من الأعلى ليغطي هذه الفرجة .. تلفت حولي فأبصرت (بلكتين) وضعتا في زوايا (الصندقة) ، حملت كل واحدة على حده ووضعتهما فوق بعضهما وصعدت عليهما لأصل لتلك الفجوة ، دفعت الصفيح فبانت فرجة ضيقة زاد من ضيقها تلك المسامير ثم أخرجت يدي اليمنى وألحقتها بالأخرى ودفعت جسدي لأعلى فانغرست

المسامير بصدري .. كنت أصرخ مستغيثاً فلا أجد من يستجيب لهذه الاستغاثة الواهنة ، وأصبحت مشكلتي كيف أعود إلى داخل (الصندقة) بعد أن أصبح من الاستحالة أن أمرر جسدي من خلال تلك الفرجة الضيقة ، وكلما ضغطت قامتي نحو الأسفل شعرت بالمسامير تحك عظامي وأحسست بدمائي تجري دافئة لزجة وتتقطر على ما تبقى من جسدي المعلق ، وبعد محاولات سفكت فيها دمي وصرخاتي أحسست بقدمي تلامسان تلك (البلكتين) اللتين وضعتهما من أجل الارتقاء .

تلمست صدري وظهري وجنبي فأحسست بينابيع تفور بالدم فمددت يدي أخمش من تراب الأرض الذي اختلط ببصو الدجاج وأردم تلك الفتحات التي امتدت على هيئة خطوط متوازية جلست متحفزاً وكلما مضى الوقت اتسعت دوائر الخوف في داخلي ، فأقفز من جلستي وأعاود المحاولة ومع كل محاولة جروح جديدة أو إيغار للجروح السابقة ، وعندما يئست تكومت بجوار الدجاج الذي هدأ حين وجدني أشاركه محبسه ، وعزمت أن أتملص بأي طريقة كانت وقد رسمت في مخيلتي طريقة تمكنني من الهرب بمجرد أن يفتح هذا الباب المغلق .

اطمئننت لفكرتي ، وتكوّرت بجوار الدجاج ، ودندنت بأغنية كنت أسمعها من أبي حين يعود ليلياً من تعبه :

زموح بو لبانة ماهدبك تهامة ؟!

هديت اتخضر حطيت في ملزامة

غالباً ما تكون أمي ساخطة تلعن حظها العاثر الذي أوقعها عند زوج لا تكاد تراه حتي يعود من حيث أتى .. كنت أفتقده كثيراً ، وعندما أسأل

أمي - عنه - تثور ، وتشقق وجهي بصوتها الغاضب :

- أبوك كالأفعى تخرج لتلدغ وتعود إلى جحرها !!

كنت ألمحه - عندما يكون بيننا - مكسوراً يتدلى رأسه بين يديه ، وتأوهاته تخرج محروقة فأقترب منه ،وأقبل يده وحين تلمحني تصرخ بي :

- ستكون مثله !

فتتقطر عيناه ، ويضمني بقوة ، ويجهش بصوت مرتفع .

في ذات صباح استيقظت ، فوجدته يجلس بيننا دامع العين ، يمسك بيده اليمنى المدفونة بكيس أبيض ، ويبكي بصوت محروق .. تلك اليد التي غادرها كفها من المعصم ، وعجز ذلك الكيس الأبيض عن أن يستر فضيحتها .. اقتربت منه ، فلم تقو يده أن تدني رأسي من فمه ليمرر شفتيه على خدي - كالعادة - ، بكيت ودفنت رأسي في حجره ، كان نشيجي محموماً وأنا أسكبه بين جوانحه ، فاسمع لصدره خشخشة مكبوتة، سألته عن كفه المبتورة ، فضمني إليه بقوة وتساقط نشيجه ، وكلما أعدت عليه السؤال التصق بي واستسلم لتلك الموجة العارمة من البكاء المتهدج .. كان ينتحب ولم يكن بوسعي سوى أن أشاركه البكاء والإحتضان ، بعد أن أفرغ لوعته مسح رأسي بيده اليسرى وأخذ يتطلع إلى عيني بحب يخالطه انكسار مرير ، أمسك بوجهي وعيناه لا تزال غائمتين خلف دموعهما وتحدث بصوت عميق :

- عندما تكبر وتجد أفواها تنتظرك ستتنازل عن كل شيء .. كل شيء .

ووقف أمامي كمذنب يرجوني - بانحناءة طويلة - أن أغفر له زلته حينما أكبر ، تلك الإنحناءة لم تمهلها أمي وقتاً كافياً كي تستعيد

استواءها، فقد اقتربت منه، ووضعت في يده (بقشة) صغيرة بها أشياؤه البسيطة، ودفعته بيدها للأمام .. بعدها لم يعد يقبلني أبداً وضاع في دهاليز الحياة

في الطرقات كنت أسمع أقراني يقولون عني أنني ابن لرجل سارق .. ويتندرون عليّ ، ، ويرون أن أبي عندما لم يجد ما يسرقه بحث طويلاً ، وعاد يحمل يده التي قطعت ، وحين أخذت والدتي في إعدادها لنا لوجبة الغذاء داهمتنا الشرطة تطالب بكفها المسروقة ، وعندما وجدوها قد طبخت ونز مرقها ، طالبوه بكفه الأخرى عوضاً عن الكف المسروقة ، وعندما عجز عن السداد نفوه إلى جزر بعيدة .

مضى زمن طويل والأفواه تلوكنا فحين غرب ذلك الوجه الكالح السمرة لم نعد نتزود إلا بالأقاويل الساخرة حتى إذا أفرغوا مالديهم من همز ولمز نسونا ، ولم يعد يذكرنا إلا الجوع والتعب .

وقد ظلت تلك المسكينة ردحاً من الزمن تغمس حياتها في كل الطرقات كي يستقيم عودنا، وننهض لمواجهة الشمس بدلاً عنها .. سقطت فجأة ولم تعد قادرة على أن تمد عنقها خارج المنزل .. في ذات مساء دفعتني بأنين متقطع :

- ابحث لك عن عمل .. أي عمل المهم أن لا تعود فارغ اليدين .

وحين خرجت كانت أبواب الرزق مغلقة في تلك الظلمة ، مددت خطوتي بعيداً وأصوات إخوتي تموء في مخيلتي ، وكقط متوحش اندفعت إلى (صندقة) الدجاج ، وقبل أن أخرج كانت عيناه تتربصان بي .. غاب طويلاً وحين عاد كان يرافقه رجل شرطة بدين وما أن حشر جسده بتلك (الصندقة)

لإخراجي حتى انغرس بلحمه مسمار صدئ ، فاشتاط غضباً ، وجذبني من ياقة ثوبي - ذلك الثوب المضمخ بالدم والممزق بفعل المسامير التي انغرست بوسطي - ، وصفعني عدة صفعات أسقطت من داخلي ذلك الخوف الكثيف.

وفي المنطقة الرابعة وقفت متلعثماً حائراً أمام أحد الضباط القساة ، وبطفولة ساذجة انفرطت أحدثه عن أبي وأمي وإخوتي ناثراً دموعي لاستدراج عطفه ، كنت أتوقف عن بكائي وحكاياتنا المتعبة ، وأرجوه أن يعيد إلينا أبانا وحين ألمح وجهه جامداً ، أخبره عن أمي التي أصبحت مأدبة للحمى والحزن ... اقترب مني كثيراً ، ويده تهم بصفعي ، فغطيت وجهي بكلتا يديّ ، وأنا أواصل سرد حكاياتنا التي لا تنتهي .. رفسني ببسطارة بين مفترق رجلاي لأسقط كخرقة بالية .

في أول ليلة أقف فيها خلف القضبان كانت غصة مرة تعبر حنجرتي ذهاباً وإياباً ، لأمسح دموعي وأتصبر .. مضت أيام وأنا ملقى في هذه الغرفة ، وعندما أوشك العطب أن يصيبني قذفوا بي للخارج ، فعدت أجر قدماي صوب منزلنا ، لتستقبلني أمي برجاء :

- علّك عدت بشيء لإخوتك ؟

فاقفلت راجعاً ، وبسرعة متناهية قفزت سور المنطقة الرابعة ، وتسللت إلى غرفة (النبتشية) وسرقت نجمات الضابط النحاسية ، وعرضتها على بائع الخردوات الذي أعادني للسجن لأتعلم - من يومها - كيف أخبئ ما سرقت .

كانت جبهة أبي المحنية بانكسارها الدائم تقف في مخيلتي كلما هممت

بالسرقة ، وقبل أن أقدم على أي عملية سطو أقبل يدي ، وأودعها الوداع الأخير ، وعندما أعود محتفظاً بها أجد أبنائي يقبلون نفس اليد التي قبلتها منذ لحظات ، ويضعونها على صدورهم .. كنت أخشى أن تتلوث قلوبهم بها ، فأبعدها عنهم بوحشية ، وأتركهم يسكبون دموعهم وأخرج مسرعاً ، أضمها إلى صدري وأجهش بالبكاء .

كنت زبوناً دائماً للمقهى الذي يقابل المنطقة الرابعة ، كنت أجلس بجوار ذلك المذياع الذي ما زال يمارس دوره القديم ، ذلك الدور الذي كان ينتشي له أبي ، ويدير رأسه بفرح ، وقد يتمادى في فرحه ويرفع طاقيته عالياً ويرقص.. لمحته عقب انفصال معصمه يشغله بيده اليسرى ويغرق في إصغائه الدائم وقد بدت عيناه تفيض بالدمع فجأة صرخ عالياً ، وأغلقه بعنف ، وقذف به بعيداً ، وظل ينتحب .

المذياع بجواري لا زال يهدر .. مللت الاستماع وملّ النادل من توسلاتي لإغلاق هذا المذياع ، وضعت كأس الشاي - الخامس - على الطاولة بتذمر وغادرت المقهى .

هذا المقهى الذي أدمنت زيارته ، فبعد انكشاف سرقة النجوم النحاسية تعلمت كيف (أنوم الأفعى) .. كنت أسرق أي شيء أجده أمامي ، وأخبئ مسروقاتي خلف المنطقة الرابعة وأظل أسامر حارس المخفر أو أجلس في المقهى في مواجهته تماماً ، وأحرص أن لا تغادرني عيناه ، وعندما ينشغل عني بشيء ما أظل أحدثه بحديث مختلق ، وبصوت مرتفع أحاول جاهداً أن أغطي على صوت المذياع الذي لا يمل من الحديث المتواصل ، وقبل أن

يتنفس الصبح أمر به محيياً ومودعاً وأحمل مسروقاتي وأمضي .

ذات صباح رائق كنت عائداً أحمل مسروقاتي بنشوة غامرة ليستقبلني صوت أول مولود لي ، عندها قررت أن أكف عن هذه المهنة وأن أحتفظ له بيدي سليمة ، فدخلت على زوجتي وقبلتها بلهفة ، وأقسمت لها أنني غسلت يدي من هذه المهنة ، فاتسعت ابتسامتها ، ساعتها شدّت على يدي بقوة وضمتها بحب .. هذه اليد التي قرعت أبواباً عدة حين كانت كل الأبواب تدفعها للخارج :

- أنت نبتة نهضت من منبع الرذيلة (وذيل الكلب ما ينعدل ...)

فأعود أجوب أبواباً أخرى ، فتغلق دوني :

- السوابق تملأ حياتك

عندها أوشك طفلي على الهلاك ، فعدت أزاول مهنتي بهمة ، وقد مضى عليّ زمن طويل وأنا أمارس هذه المهنة التي لم أعرف سواها .

يبدو أن هذه المرة سأفقد معصمي نهائياً ، تملصت من يده وهو يدفعني بشدة حتى كدت أقع على وجهي .. كان صوته ثقيلاً كجزمته :

- يا لص !!

وقفت أمام القاضي مطأطئ الرأس ، وبيدي المذياع الذي سرقته :

- ما الذي حملك على السرقة ؟!

- كل يوم أجلس في المقهى وهذا المذياع يمارس الكذب بصوت مرتفع من عهد طويل .. فقررت أن أريح نزلاء المقهى من كذبه ، فسرقته .

- إذاً أنت تعترف

لم أتمالك غضبي ، فصرخت بانفعال :

- وهل تراقبه - أنت - على كذبه .. هذا الكذب المتواصل ؟!

زجرني بحدة ، وأشار للعسكري بأن يغيبني عن وجهه .. ساعتها دفعني العسكري أمامه ، وهو يردد بغلظة :

- يا لص .!!

٨ أبريل ٨٩

عرعر

□□□

برحة العنبري

توقف العمال عن البناء فجأة ، وسورت الأرض بإحكام بواسطة زنك لم تترك فيه فرجة واحدة تمكن العين المتطفلة من التأكد من الخبر الذي أشيع في ممرات الحي ، وغدت الألسن لا تتحدث إلا عن تلك البرحة المسورة والتي يقف على بوابتها رجلان غليظان استعان بهما العنبري مقابل دخلاً يومياً كبيراً يوازي دخل عمدة الحي لشهر كامل ، كان من المتوقع أن تشيد على هذه الأرض بناية شاهقة تميز هذه الحارة الغارقة بين المنعطفات الملتويه ، والأحلام البائسة ، وقد أمل الكثيرون بإيجاد فرص عمل حين الشروع في بنائها إلا أن هذا المشروع توقف فجأة ، وسورت الأرض وانطلق العنبري يبث مكاتباته إلى جهات رسمية عديدة ، ولم يكن أحد ليعرف سر تلك المكاتبات التي استنزفت مجهود العنبري وجعلته يبدو أكثر ضيقاً مما مضى ، وقد تقول أهل الحي أن سبب توقف البناء يعود لظهور مُلاك الأرض الحقيقيين والذين أثبتوا ملكيتهم لتلك البرحة مما حمل العنبري على التوجه بالمكاتبات إلى الجهات الرسمية في محاولة يائسة لإثبات ملكيته لتلك الأرض ، ولم تكتف الحارة بتلك المقولة بل أضافوا أن العنبري عمد إلى بيع جميع ممتلكاته لكي ينافح عن هذه البرحة الواسعة والتي يمكن أن تصبح مع الأيام مشروعاً استثمارياً يقفز بالعنبري إلى مصاف وجهاء البلد ، ولم يكن العنبري ليحفل بتلك الأحاديث بل زادته حرصاً على التكتم وعدم البوح بسر ركضه اليومي بين دهاليز الدوائر الحكومية وبلغ تكتمه حد الإدعاء بأنه يعاني من أمراض مستعصية ويرغب في الحصول على إذن للعلاج بالخارج ، إلا أن كل ذلك الإدعاء والحرص في التكتم على مشروعه جعل أهل الحي يتابعونه بالأسئلة التي لا تنتهي ، وكان يلعن كل من يحاول دس أنفه في

أموره الخاصة ويزداد شططه إذا صادفه أحدهم وسأله عن وجهته الصباحية ، كان خلال تلك الأيام يخرج من الصباح الباكر ولا يعود إلا في آخر النهار وقد أكل التعب ما تبقى له من نشاط ، فيجلس بجوار دكان عليثة مستظلاً بظل طربال وضع ليقي الزبائن من أشعة الشمس والأمطار الموسمية النادرة ، حيث يجلس هناك ليشرب قارورة ميرندا بلهفة وكأنه يطفئ لهيباً شب بجوفه ولم يكن ليوقف لهاثه وعرقه المتصبب إلا إطلاق اللعنات التي لا تنتهي عند حد ، ويغمغم بشتائم موارية ، وقبل أن يصل إلى بيته يعرج صوب الحارسين الموكلين بحراسة الأرض المسورة بسياج الزنك مؤكداً عليهما عدم السماح لأي كائن بالاقتراب من السور ، ويدلف إلى بيته ولا يغادره إلا في صبيحة اليوم التالي ليبدأ ركضه المحموم في اتجاهات متباعدة .. حيث يقف على باب كل دائرة لكتابة المعاريض ولم يكن يرضى بصيغة كاتب المعاريض بل يحثه على تدبيج معروضه بألقاب ونعوت فخمة ، وكان يملي على الكاتب صفات عجيبة يستنبطها بعشوائية كسيد المحترمين ، وأول وطني حر ، والساهر على راحة المخلوقات من إنس وجان ، وعندما يشعر أن معروضه حمل كل الصفات التي إلصاقها بمن يخاطبه في معروضه ترضيه يترك ضحكته الحلوة تنساب ، ويدغدغ الكاتب بجمل ، أو نكات متوددة ويحمل معروضه ويركض ليقف في صف طويل منتظراً دوره والذي ينتهي غالباً بما لا يحب .

في الماضي لم يكلفه الحصول على هذه الأرض الكبيرة أي تعب ، ولم يصغر نفسه لكبير أو صغير بل لم يغادر بيته بتاتاً واكتفى بالمطالبة بهذه البرحة - التي تطبق عليها البيوت من كل جانب - مع من كان يتنازع

عليها ، وعندما قرضهم الموت واحداً واحداً ولم يتبق أحد منهم آلت إليه بالأقدمية ، وسميت باسمه لسبب غير معروف وإن كان أكبر المعمرين بالحي يرجع ذلك لكون العنبري تربطه علاقات وثيقة بكبراء البلد ، ويضيف بأن العنبري كان الرجل الوحيد الذي يعرف القراءة والكتابة من بين أقرانه ، وهذه الميزة مكنته من معرفة أمور كثيرة لم يقف على خباياها سواه حيث كان يقرأ الرسائل التي تصل إلى عمدة الحي ، وغالباً ما كان يخبئ الأسرار العميقة ولا يقرأها للعمدة كما كان يكتب لأهل الحارة رسائلهم التي يبعثونها لذويهم المنتشرين في أرض الله ، ويقوم بقراءة الخطابات التي تصلهم لذلك كان يجمع كل الأسرار ويسخرها لمصالحه الشخصية ، ولكونه امتاز بهذه الميزة فقد ذاع صيته وأصبح الجميع يرددون اسمه فعرف داخل وخارج الحي ، فأصبح الناس يعرفون الأخرين بقربهم أو بعدهم من العنبري كأن يقال فلان بيته خلف بيت العنبري ، أو فلاناً يقطن بحي العنبري ، وقد سُئلَ العنبري عن سبب تسمية الحي باسمه فذكر أن أول من قطن هذه البقعة من الأرض جده الكبير حين لم يكن بها إلا الريح والشمس الحارقة ، ولم يقل ذلك إلا ليحصد مكاسب إضافية في دعواه بامتلاك كثيراً من البيوت المتنازع عليها وكان من ضمنها تلك البرحة الواسعة والتي ظل يجادل على ملكيتها حتى نفق جميع خصومه بالموت ليصبح هو المالك الوحيد لها وقد آثر الكثيرون التسليم له بملكيتها على الدخول معه في قضايا يعرف كيف يحركها لصالحه ، وحين أيقن أن لا أحد يجرؤ على منازعته في ملكيتها قرر أن يشيِّد على أرضها الواسعة عمارة شاهقة يركن إلى دخلها فيما تبقى له من عمر ، فاقترض من البنك العقاري مبلغاً ضخماً روى أبو ياسين العربجي

أنه حمل المبلغ في خيشتين كبيرتين ، فقد لمح العنبري ينوء بهما ويسير حيناً ويسقط حيناً وعندما لمحه ينوء بحمولته عرض عليه خدماته .

فاستأجره لنقل الخيشتين اللتين الهدت وتناثر منهما أوراق نقدية في الشوارع التي سلكوها ، ولم يفطن أبو ياسين لتراكض الناس خلفهما إلا بعدما وصلا إلى دار العنبري الذي كان يجلس بجواره وباله شارداً في ملكوت الله ، وقد أبدى أبو ياسين ندما لم ينضب إلى الآن فكلما تذكر تلك الواقعة تنهد بعمق وخرجت الكلمات دون أن يشعر بها ، وأصبحت لازمته المشهورة حيث ظل يكرر :

- لو أنني نزلت وجمعت ما تساقط لأصبحت إنسان محترم .

وغالباً ما يضرب كفه بفخذه متحسراً :

- دنيا ليس لها صاحب

وعندما شرع العنبري في البناء توقف فجأة عند الحفر مما مكّن الألسن من حبك الأقاويل وخلق الأسباب التي أدت لهذا التوقف ، وقد تقوّلت النسوة نقلاً عن زوجته التي رأت في ما يرى النائم أن النبي الخضر طوق عنق زوجها بقلادة صيغت من الذهب الأحمر الخالص وأحيطت دائرتها بأحجار الياقوت والفيروز ، وقال له :

- يا عنبري إن بباطن أرضك رزقاً لا ينفذ فاجعل فيه حقاً للسائل والمحروم .

ولما أحدثته هذه الشائعة من صدى واسع في مجالس النساء أجزم الكثيرون أن توقف العنبري عن البناء يعود إلى تلك الوصية التي نقلتها إليه زوجته من العالم الآخر ، وقد تزامن ذلك مع حضور بعض الموظفين

الحكوميين لمعاينة الأرض ، وتمتيرها ،، وغرس مثقب طويل بتلك البرحة الواسعة مما حمل الكثيرين على القول :

- لقد نوى العنبري بناء رباط يجمع فيه المحتاجين والضعفاء تحقيقاً لحلم زوجته .

ففي ظهيرة أحد الأيام ظهر العنبري ومن خلفه مجموعة من المهندسين [illegible]ات الكبيرة وكان يتقدمهم مبدياً بشاشة غير عادية وذلاً لم نعهده به فقد كان ينحني ليزيل ما يعترض سبيلهم من قاذورات ، ويبالغ في تبجيلهم بحيث يوقفهم عند مرورهم بالماء المندلق من تلك الأزقة الملتوية ويحضر ألواحاً خشبية ليسيرون عليها ، مبدياً تذمراً أقرب للسباب

- لقد ابتلانا الله بحثالة من البشر فهم يتبولون ويتغوطون بالأزقة .

ويطلق سرباً من الإعتذارات والتي لا يعرف لمن يوجهها بالتحديد ، وكان مسايروه أكثر تذمراً وحنقاً حيث بدت سحناتهم تضيق بكل ما حولها وأولهم العنبري نفسه ، وبعد ثلاثة أيام من ترددهم لم نعد نلمح إلا العنبري وهو يصيح بأهل حارته :

- إن أرضي بها نفط و ولا أحد يريد أن يصدقني

وكانت جملته هذه كفيلة باسقاط كل تلك التوقعات التي غزلها أهل الحي عن الخير الذي سيأتي من بين يديه ، وغدا وقوف العنبري على أرضه صائحاً بجملته تلك مجلبة للتعليقات من كل الأفواه التي كانت تجاوره ، وكان أوطأها نعته بالجنون ، وذهب البعض إلى القول :

- من يدعي ملكيته لما لا يملك يفقد ما يملك .

وسخر منه الكثيرون ، وأمنوا على أن ما أصاب العنبري إنما جاء من

دعوة المظلومين الذين انتزع منهم أراضيهم بالباطل ، فكان العنبري لا يدفع عن نفسه أي تهمة تلتصق به ، أو تعبر أذنيه المفتوحتين على اتساعهما عله يسمع كلمة تصديق لما يقول ولم يكن ليهتم بتلك السخريات الطائرة فقد حصر اهتمامه على جعل أهل الحي يؤمنون بمقولته لذلك طرد الحارسين ووقف على الباب منادياً العابرين لمشاهدة ذلك السبخ الذي يطفو على سطح الأرض ، وكان يبلل يده به ويشمم الحضور ، وهو في أوج انفعاله ويطلق صراخات منفعلة بأعلى صوت :

- أليست هذه رائحة قاز؟

ويعود مرة أخرى ويخمش من الأرض ، ويغرس أنفه المستقيم بتلك الرائحة، ويعقب بقسم غليظ :

- ورب الكعبة الذي أخرج الماء من سبع أراضين إن هذه الأرض تحمل كنزاً يسد المشرقين والمغربين .

كانت رائحة نفاثة تنبعث من تلك البقعة أشبه بتجشع البحر مخلوطة برائحة ديزل محروق ، لذلك كان يوصي من أراد الشم أن لا يكترث لرائحة العفن التي تنبعث لأول وهلة ويحرض المقعرين بمقولة أقرب للتحقير من التحفيز :

- إن ما تخرجه بطونكم كان شهياً في أنفسكم ، ورائحة النفط كريهة في البدء ولكنها تستحيل شهوة يسيل لها لعابكم المشدود الآن بسبب تقززكم .. اقبلوا وشموا رائحة النعيم .

وعندما يقبل إليه قلة من المتجمهرين ينبطح على الموقع الذي يقف عليه ويخرج صرخات أقرب إلى البكاء :

- ما حلمت به زوجتي هو الحق وسترون .

فيصفق الحاضرون أكفهم أسفاً ، ويحاولون جذبه إلى خارج تلك الأرض ، وهم يدعون أن يمن الله عليهم بسلامة العقل .

مات العنبري ، وتساقط السور الزنكي الذي كان يحوط تلك الأرض ، وردمت تلك اللجوات العميقة التي أحدثها المشروع الأهلي في التنقيب عن النفط ، وإن ظلت بقايا أنقاض البيوت التي هدمت ، وعادت البرحة متنفساً لأهل الحارة يقيمون ولائمهم بها ، ويسمرون الليالي الطوال على أرضها السبخة التي لم تفلح كل الردميات من إخفاء تلك الطبقة المترشحة والتي تستحيل فى الأيام الحارقة إلى مسافات كبيرة من الملح .. مضى العنبري وظل اسمه ملتصقاً بهذه البقعة من الأرض ، وغدت حكاية النفط التي مات بسببها العنبري حكاية تروى :

فبعد أن تشكلت لجنة لاستقصاء فحوى معاريضه المتعددة ومعاينة الموقع أصدرت لجنة المهندسين تكذيباً لدعوته وأوصت بعدة توصيات لم يستطع العنبري قراءتها فأيقن أن تلك التوصيات تهدف حرمانه من الكنز الذي تمور به أرضه لذلك لم يقتنع بمقولاتهم والتي تؤكد أن لا نفط بأرضه ، ووصمهم في آخر يوم للمعاينة بالخونة ولم يمد لهم ألواح الخشب كجسر يعبرون من خلاله من فوق تلك الأوحال التي تسيل بين منعطفات الحي ، وقد اشتاط غضباً وصعّد شكواه إلى أكبر مسئول بالدولة ، وقد تكونت لجان عديدة مع كل شكوى يرفعها ، وفي إحدى المرات قيد إلى السجن بحجة إزعاج السلطات ، ولم ينج من السجن إلا بعد أن كتب على نفسه تعهداً يقضي بعدم رفع شكوى إلى أي جهة مهما كانت الأسباب التي يزعمها ، وقبل أن

يكتب التعهد تمنى على الضابط أن يخبره بفحوى التوصيات التي كانت تكتب مع كل لجنة تصل إلى أرضه ، فزجره الضابط بحدة :

- هذا ليس من اختصاصك .

خرج يجر أقدامه من المخفر وكله يقين بأن أرضه تكتنز ذهباً سيتسرب من بين يديه إن لم يسارع على استخراجه بنفسه ، كان في سيره يوسوس بصوت مسموع :

- إنهم يتآمرون على سرقتي في وضح النهار .

ويرفع صوته محتداً :

- لن أمكنهم من ذلك حتى لو قطعت رأسي وعندما وجد أنه لا يقدر على الشكوى فتح بوابة البرحة ، وأخذ ينادي على أهل الحارة ويقسم لهم أن أرضه بها نفط ، ويتودد إليهم بمساعدته في مطالبة الدولة بمعاينة الأرض من قبل مهندسين وطنيين ، وكان يحمل معروضاً أملاه على أحد الكتبة بنفسه وقد وضع بذلك المعروض كل الكلمات التي من شأنها أن تجعل قارئها يتعاطف مع ما جاء بها ، كان يحمل ذلك المعروض ، ويطالب أهل الحي بالتوقيع الجماعي على ما جاء فيه آملاً أن يوكل به لأحد الرجال الذين يثق في مقدرتهم على تحريك الموتى .. وقد هيأ له مدخلاً ليعاود مطالبة الجهات الرسمية بالتأكد من وجود نفط بأرضه .

في بادئ الأمر أقبلت الحارة برجالها ونسائها للسخرية والتطلع إلى تلك الأوحال التي تنز من باطن الأرض ، وأيديهم ممسكة بأنوفهم كلما شموا يد العنبري الملوثة بتراب أرضه السبخة إلا أن رائحة الديزل المنبعثة مع ذلك النتن كانت بداية لدخول الشك في أنفسهم والميل إلى التصديق ، وقد عمل

العنبري على تعميق هذا التصديق المشوب بالشك ولذلك عمد إلى جذب التنوري لصفه (ذلك الرجل الذي يمتاز بصفات ليست عند سواه فهو رجل قادر على إقناع الآخرين بأن النهار عتمة فقد منحه الله حجة تجعل الشيطان يرتاد المساجد) .. هكذا هجس العنبري لنفسه وهو يسير إلى التنوري وكان يفكر بكيفية جعل التنوري يصدق دعواه ، ولمعرفته الأكيدة بنفسية التنوري اطمأن قليلاً حين أمسك برزمة الأوراق النقدية المحشوة بجيبه الأسفل ، وقال مطمئناً نفسه :

- إنه ينافح أبيه وأمه من أجل المال .

وتخاذلت خطواته حينما خطر له أن التنوري لن يقف معه ، خاصة وأنه أول من سفّه مقولاته واتهمه بالجنون ، فوقف على بابه متردداً حائراً ، وبعد تردد أقنع نفسه بأنه لن يخسر شيئاً وليعرض مطلبه على التنوري فإن وافق كان الخير عاماً وإن امتنع فما عليه إلا أن يقوم بحيلة لملء الأرض بالغاز والديزل حتى يكسب المؤيدين للتوقيع الجماعي على معروضه ، شعر الإرتياح لهذا القرار ، وطرق الباب بثقة ، وعندما التقت عيناهما عرف كل منهما مقصد الآخر ، ولم يمهله العنبري لأن يفكر فقذف إليه برزمة النقود ، فغفر التنوري فمه وانكب يملأ يده بتلك الأوراق الزرقاء ، وكانت دهشته عظيمة حينما تصنم للحظات قبل أن ينكب لجمع تلك الأوراق البنكنوتية ، وهو يصيح بانفعال :

- ماذا تريد ياعنبري كي يصبح حقيقة ؟

كان يجمع تلك الأوراق المتساقطة بتلذذ وبعد أن أنهى جمعها قال للعنبري بثقة :

- كل ما تريده سيتحقق

ولأول مرة يضحك العنبري بارتياح فانبسط وجهه وزالت تجعداته التي كانت تعتم على ملاحته ، وخبط التنوري برفق :

- وسيكون لك ملء هذه الغرفة ذهبا .

وأمام هذا الإغراء الفاحش نهض التنوري بالمهمة كاملة ، بعد أن أقنع العنبري بعدم جدوى إبلاغ السلطات والإكتفاء بمؤازرة أهل الحي وقد حمل بكل الطرق لترويج استخراج النفط المتغلغل بين طيات أرض العنبري ، وما هي إلا أيام حتي أصبح النفط حقيقة لا جدال فيها والويل لمن يكذب هذا الحلم الذي سينتشل الحارة من بؤسها .. كان هذا شعور أهل الحي أجمعين ، وقد انتقلوا من مرحلة التصديق إلى اليقين والعمل على استخراج هذه الثروة المطمورة في باطن الأرض ، وقام التنوري بجمع مبالغ من المال ليتمكنوا من شراء معدات ضخمة ، وكان شعاره الذي أطلقه :

- لتنعم بالحياة ادفع ما تقدر عليه .

وأخذ يؤكد للأهالي أن الأرباح النفطية سوف توزع على أساس المدفوعات فمن يدفع أكثر يحصل على نسبة توازي مدفوعاته ، وفي ليلة وضحاها انقلبت الحارة رأساً على عقب فالكل يريد المساهمة في مشروع العنبري وقد تكونت مجموعة لجمع التبرعات ، ووجد الكثيرون أنفسهم منقادين إلى المساهمة في هذا المشروع الذي حرك في دواخلهم شهوة الغنى ، وجلس الكثيرون يحسبون أرباحهم ويرتبون احتياجاتهم ويحلمون بصوت مرتفع ، ووجد بعض أهل الحي أنفسهم بعيدين عن هذه المساهمة لفقرهم المدقع ، وقد عرف التنوري كيف يحرك ركودهم مما جعلهم يقومون ببيع ما

يمتلكون في سوق الخردوات ودفع حصصهم الضئيلة إلى تلك اللجنة المكلفة بجمع التبرعات ، التي بادرت على الفور بإحصاء التبرعات وإعلان أسماء المتبرعين الجدد ، وقد لجأت اللجنة إلى الإعلان عن رأسمالها والمنضمين إليها بين الحين والآخر كطريقة لتحفيز الخامل لأن يلحق بقطار الأغنياء وكم كانت خيبة العنبري والتنوري كبيرة حينما وجدا أن المبلغ لا يكفي لشراء دركتر واحد ، ولذلك عادت المطالبة بجمع الأموال ، وتحريض أهل الحارة لبيع الغالي والنفيس من أجل إتمام المشروع ، فقام بعض الرجال ببيع مجوهرات نسائهم ، وقام البعض الآخر برهن حجج أراضيهم ، وبيعت المواشي والآثاث ، ولجأ الكثيرون إلى الإقتراض طويل الأجل من الأقرباء والأصدقاء البعيدين ووجدت الحارة نفسها منقادة إلى المساهمة في جمع المال، وقد انتدب لهذه المهمة رجال طويلو الألسن ، خفيفو الظل ، يعرفون كيف يجعلون المرء يصدق بمقولاتهم دون أن يجرؤ على التفكير ، وقد نتج عن ذلك استقطاب عمدة الحي لكي يكون أكثر المساهمين دعماً والمتستر على مشروعهم حتى يرى النور وقد وعدوه أن يمنحوه باخرة مليئة بالقاز ، ومن فرط فرحته أخرج مبلغاً محترماً كان يحتفظ به تحت البلاط وقدمه إليهم يرجوهم قبول مساعدته البسيطة لاستكمال مشروعهم الذي وصفه بأنه صفقة العمر والدينمو الذي سيحول الجميع إلى أغنياء .

وانتشرت شائعة بأن إمام المسجد رأى في إحدى ليالي رمضان أن السماء تفتح ويتساقط منها ريالات ذهبية حمراء ، فكان يملأ يده ويقذف بها بكل اتجاهات الحارة وهو يصيح :

- اللهم اغني جيراني كما أغنيتني .

وكانت كل الجنيهات المقذوفة تنحرف عن مسارها وتسقط ببيت العنبري، فناداه :

- يا عنبري امنح المستضعفين مما منحك الله

وروى أنه لمحه يخرج من داره حاملاً برميلاً مليئاً بالذهب واللؤلؤ له طلعة ملك حيث استحال لونه إلى اللون الفضي ونبت له جناحان كأجنحة الحمام المكي أخذ يحلق بهما على أسطح المنازل وينثر جنيهات الذهب على الناس .

ومع انتشار هذه الشائعة تصادف أن بشرة العنبرى انجلت وغمر وجهه توهج خفيف حتى أن البعض أخذ يرفع ذراعيه عله يلمح منبت الجناحين ، وقد أقسم البعض أنه رأى يديه تنفرجان عن خاصرته رتتقوصان على هيئة جناح في بداية نموه واستدارته ، وعملت النساء على إذكاء هذه الشائعة بزوائد عجيبة حيث روت إحداهن أنها شمت رائحة مسك يخرج من بول العنبري حين كانت تجالس زوجته وهو في (بيت الما) يتهيأ للوضوء .

توافد المساهمون من كل صوب حتى أن بعض الحواري الأخرى رغبت في المساهمة إلا أن القانون المتبع كان يقضي بأن تحصر الثروة على أهالي الحارة نفسها ، مما جعل هؤلاء يلجأون إلى طريق منحني بحيث يمنحون أهل الحارة مساهماتهم بعد مكاتبة فيما بينهم على إعطائهم نسبة تقل عن المفترض الحصول عليها .. وقد أوصاهم العمدة بالتكتم على الأمر خشية أن تتدخل الدولة وتمنع استكمال المشروع ، ولذلك سارعت اللجنة المكلفة بالمشروع إلى ترسيخ شائعة أن العنبري عزم على إقامة عمارة ضخمة ستكون رباطاً للمحتاجين والفقراء والتأكيد على أن حفر أساس العمارة سيستغرق أياماً طوالاً وكان لهذه الشائعة صدى واسعاً حمل الكثيرون إلى التكدس بجوار

بيت العنبري للاستفسار عن صحة تلك الشائعة التي أحبطت أحلامهم ولم يجد العنبري مفراً من إخبارهم بأنها مجرد غطاء لاستمرار مشروعهم وخوفاً على ثروتهم من أن تمتد إليها أياد أخرى ، فأكبروا بعد نظره وعادوا يحلمون بالجاه .

وبعد شراء بعض المعدات البسيطة من فؤوس وكريكات وعربات لنقل الرمل الذي خصص له مكان محدد حيث تم هدم بيت أبو عيسى وسورت البرحة تسويراً إضافياً محكماً وانهمك الكل في الحفر فقد كان الحفر لا يتوقف حيث تم توزيع مجموعات تتناوب على الحفر طوال الليل والنهار ، وبعد حفر دام أربعة أيام لم يكن يخرج لهم إلا ماء موحلاً تفوح منه روائح منتنة تضيق بها النفس مما حمل العمال على تكميم أفواههم وأنوفهم بقطع الشاش المرشوشة بطيب العود .. غدت تلك البرحة فجوة كبيرة بداخل الأرض ، وتخلل اليأس إلى النفوس ، وكلما هم العمال بالتوقف حفزهم العنبري على مواصلة الحفر مذكراً إياهم بالنعيم الذي سيتمرغون فيه قريباً ولم يكن ليكتفي بهذا بل كان ينزل إلى تلك الحفرة الواسعة العميقة ويمسك بمعول أحدهم معمقاً الحفر ومدندناً بأغنية شجية يستجيب معها بقية العمال ويضربون بفؤوسهم تلك الأرض الرخوة .

تعمق الحفر بعيداً وأصبح التراب جبالاً كبيرة استدعى الأمر لإخفائها على هدم بيتين آخرين ولم يكفوا عن هذا الحفر إلا بعد أن تأكدوا أن الأمر لا يعدوا كونه جنون صدقه المعتوهون وعند هذه النهاية قامت قيامتهم وثاروا ضد العنبري ورجاله ، وأخذوا يطالبون بأموالهم فكان العنبري يصفهم بالجهل ويؤكد لهم أن النفط لا يوجد إلا بأعماق الأرض وأن عليهم أن

يحفروا لشهور قادمة ، ولكي يؤكد كلامه فقد أحضر تلميذاً متفوقاً وطالبه بقراءة درس استخراج النفط من المنهج الدراسي الذي يدرسه بالمدرسة ، فأخذ التلميذ يقرأ وهم يستمعون إليه دون أن يفهموا ما يقول وبعد أن انتهى طالبوه بالقراءة مرة أخرى وشرح ما يقرأه ففعل ، وكان العنبري يتدخل شارحاً ما يقرأه ذلك الصبي ، فهدأوا قليلاً إلاّ أن الكثيرين ظلوا عند مطالبتهم باسترجاع أموالهم مما حمل العنبري على سداد مستحقاتهم من الأموال المدخرة لاستكمال المشروع وفطن التنوري للتراجع الذي حدث من قبل أهل الحي فسرب خبراً بين الناس من أن الدولة ستساهم في استخراج النفط من برحة العنبري ، واقتضى الأمر أن يرسل بأناس من طرفه يمثلون دور المنتدبين لمعاينة الموقع ، وأوصاهم أن يصرحوا بصوت مسموع من أن النفط سيتدفق خلال أيام قلائل ، وأن يعتذروا للعنبري ، فتراجعوا عن مواقفهم وطالبوه باسترجاع ما أخذوه إلا أن العنبري رفض طلبهم فظلوا لأيام يسترضونه ويرسلون إليه بالوسطاء والجاهة كي يغفر لهم استعجالهم ، فغفر لمن غفر وتوعد البقية بأن يجعلهم يعضون أصابع الندم .

وفي إحدى الصباحات استيقظت الحارة على جثته المنكسة فوق فوهة إحدى الحفر العميقة وثمة أوحال غطت ملامح وجهه ، وقد روى أحد العاملين في المشروع أن الحفر بلغ عمقاً بعيداً فاحت معه رائحة القاز فلم يتمالك العنبري نفسه من الفرح وطلب من العمال بأن يمدوه بسطل من قاع تلك الحفرة ، فغسل وجهه بتلك الأوحال ، وطلق زوجته ثلاثاً إن لم يبت الليل بطوله وهو يستنشق هذه الرائحة التي وصفها بأنها رائحة النعيم .

* * *

لم يمض على موت العنبري سوى خمسة أعوام ، كان لا يذكر فيها اسمه وإلا وتبعته اللعنات والشتائم الفاحشة ، ولم يكن يترحم عليه أحد ، ففي إحدى المرات وبينما كان رجال الحي يتسامرون ذكر العنبري عرضاً فزلت لسان أحدهم بالترحم عليه ، فثارت ثائرة الحضور وانهالوا عليه بالضرب وقذفوه من مجلسهم كما تقذف البهيمة النافقة وأصبح الترحم على العنبري من المحرمات التي توجب القصاص وفق أمزجة من سمع ذلك الترحم . وقد حملت الحارة وزرها بأعناق ثلاثة أشخاص هم : العنبري ، والتنوري ، وعمدة الحي الذي مات في إحدى جولاته الليلية دون أن يعرف قاتله ، ولم ينج من الموت سوى التنوري الذي رحل صبيحة موت العنبري ولا أحد يعرف إلى أين اتجه ، وإن تناقل الناس بأنه توجه صوب الحبشة واستوطنها .

كانت الحارة لا تزال تعيش صدمة النفط وقد تحول معظم سكانها إلى متسولين ، أو لصوص ليل إلا أن المهنة الأخيرة لم تكن ذات جدوى فليس هناك ما يسرق في كل بيوت الحي .

لم يكن باليسير تناسي الصدمة ، ففي أول يوم من موت العنبري خرجت الحارة تبكي آمالها وتناسوا جثة العنبري على صراخ أحد العاملين بالمشروع:

- لقد كان العنبري يمنينا بنعيم الدنيا فإذا بنا ننتهي بقاذورات الدنيا .

وتم إخراج عينات من قاع الحفر العديدة التي أخذت تمور منذرة بتدفق تلك الأوحال على سطح الأرض ، فسارعوا لطمرها لدرجة أن تلك الأتربة لم تكفي لردم الحفر المفتوحة مما حمل البعض إلى الذهاب للحواري الأخرى لاجتثاث أتربة وجلب الحجارة لردم فوران تلك الحفر ، وبينما هم يطمرون إحداها لمحوا جثة العنبري طافية وقد انتفخت وأوحلت فلم يعد يعرف وجهه

من خلفه ، وعندما حاول أحدهم انتشالها نهروه ، وصاحوا به :

- عاش قذراً فدعه ينعم بقاذورات الآخرة

وأهالوا عليه التراب ، واستعاضوا الله فيما خسروه .

خلال تلك الأعوام الخمسة كانت تزورهم تلك الرائحة التى تذكرهم بحلمهم وخيبتهم فى آن واحد وتظل ماكثة تعكر أنفاسهم لليال عدة دون أن يتمكنوا من معرفة مصدرها . وانتشرت شائعة أن العنبري كان صادقاً فى دعواه ، ولأنه دفن دون أن يصلى عليه فقد استجاب الله لدعوة زوجته التى رفعت يدها يوم طمروه فى تلك الحفرة العميقة وأهالوا عليه الأتربة والحجارة أن يسلط الله على الحى عذابا لم يعذب به أحد ..

لذلك تراجع الكثيرون عن لعنه وتبرع أحد المتعلمين بمكاتبة الجهات الرسمية ، وتذكيرهم بان الحى يجلس على الكنز من الذهب الأسود لكنه عاد بعد ثلاثة أيام صامتا وحمل أسرته وغادر الحى دون أن يتفوه بكلمة . وإن أسرت زوجته لإحدى جاراتها بأن تغادر الحى قبل أن (يقع الفاس فى الراس) ، ولم تفقه الجارة تلك الوصية إلا حين وقعت الكارثة .

***

تناسي أهل الحي كنزهم المطمور مع جثة العنبري ، وانشغلوا بأنفسهم حيث انتشر مرض أخذ يحصد الناس دون هواده وقد احتار طبيب المستوصف العجوز في تشخيص كثير من الأمراض التي كانت تصله وإن كانت معظم الحالات تعاني من مرض غريب يؤدي إلى اختناق واحتقان زهري في أعلى البطن سرعان ما يؤدي إلى ظهور بثور برؤوس بيضاوية تنفجر ولا تترك صاحبها إلا بعد أن يسلم الروح .

ومع كثافة المراجعين والمتساقطين من تلك الأمراض التي اختلفت أعراضها لم يجد طبيب المستوصف ما يفعله سوى توزيع محلول (الكوبيا).

وقام من حينه بكتابة تقرير شامل عن تلك الأمراض وبعث بها إلى وزارة الصحة طالباً مد يد العون وفي هذه الأثناء كانت الأمراض تتكاثر ويساقط أصحابها الواحد تلو الآخر.

في البدء انتشرت رائحة نفاذة خليط من رائحتي القاز والبراز ثم تحولت إلى رائحة خانقة أشبه بميتة أنتنت مما حمل أهل الحي إلى الخروج زرافات للبحث عن مصدر تلك الرائحة وهم يؤكدون أن ثمة كلب قد مات على أحد أسطح المنازل أو أنه انحشر بين خشب الصناديق المتداعية في كثير من بيوت الحي وفي أثناء بحثهم كانت زوجة العنبري (والتي أصيبت بلوثة بعد أن طمر زوجها في إحدى الحفر العميقة)كانت تدور في الأزقة صائحة:

- لقد قرب موعدكم فترقبوه.

فكانوا يزجرونها لاعنين العنبري وما خلفه لهم من عناء وضيق اليد.

كانت تلك الرائحة النتنة تجوب منعطفات الحي فلا يعود أحداً قادراً على استنشاق الهواء، وقد تسببت تلك الرائحة في اختناق العديد من أهل الحي فأسلموا أرواحهم بهدوء، وقد فسر طبيب المستوصف أن الأمراض التي عانى منها الكثيرون من أهل الحي قد تكون ناتجة من هذه الرائحة، حيث كان معظم الأهالي يقضون معظم أوقاتهم بين أتربة تلك البرحة السبخة.

احتار أهل الحارة في تحديد مصدر تلك الرائحة، وعندما وجد عمدة الحي الجديد أن الناس أخذوا في التناسل هرباً أمر أن يقوم كل واحد من أبناء الحي بنزح بيارته، ومع أول معول ضرب الأرض حدث ما لم يكن في

الحسبان حيث تراخت قشرة الأرض وتقوضت وأخذت تبتلع البيوت والناس وانفجرت كل الشوارع قاذفة بقاذورات وأوحال مسودة أخذت تتدفق بلزوجة بين الأزقة وتجمعت وانسابت متدفقة كالسيل المنهمر جارفة كل ما يقف في طريقها .

١٤١٥ هـ

□□□

الخائن

كان الخوف أكبر من أن أتجرأ وأسأله .. وكنت أكثر حرصا على أن لا أثير أي زوبعة حولي، لذلك بقي سؤالي ميتا بصدري ، وإن نازعني بعد مغادرته سكبته من خلال لعنات وصرخات ممتدة :

- ماذا ينقصني يا بن الديوث .. هه ماذا ينقصني ؟؟

وقد أبدد غضبي العاتي بقذف حذائي أو بصقاتي خلفه بعد أن أتأكد من أنه لا يراني !!

في كل مرة يأتيني أزداد رعبا ، واصفرارا ، وأنقاد صاغراً لما يريد، وما أن يغيب بابتسامته المقززة حتى أنفجر لاعناً كل شئ ، وأظل أحوم بداخل دكاني كالملدوغ .

* * *

كانت السيارة تخب بنا ، وأنا أقترب من رأسها المتمايل ، وأهمس :

- الوطن جرح .. إن بقيت بداخله جرح ، وإن خرجت منه إزداد جرحك إتساعا !!

فتضم يدي، وتغدو أكثر عذوبة :

- كفى غربة يا أعز الناس .. وأؤكد لك أنك ستجده كما تشتهي .

يصيبني بلل من الطمأنينة وتتخرط أمنيات حلوة بالذاكرة ، فاستعجل الزمن للوصول وأنا أتمايل مع رجفة السيارة العابرة لهذا الخلاء المتسع ، وأسرح بالأحلام مع أزيزها الرتيب الممتد، كان كل شئ يعبرنا للخلف ، وثمة سؤال موحش يعبر حنجرتي بمرارة :

- ألا زالت الدنيا كما تركتها ؟؟

أطلقت زفرات حارة ، وعلقت عينيّ بالمدى .. فشعرت بزوجتي تربت على ظهري ، وتطلق سربا من الإبتسامات البيضاء في فضاء وجهي .

ثمة لافتة كبيرة تقف على مدخل حدودنا ، كتبت عليها عبارة .. (أيها الطيور المهاجرة وطنكم يرحب بكم) .. وكانت رائحة ترابه تمتزج بدمي ، وتهيج دموعي التي لم أتمكن من تخبئتها عن عيون رجل الجمارك الذي ارتاب منها ، فنثر محتويات حقائبي على الرصيف ، وقادني أمامه ، دافعا إياي إلى غرفة ضيقة ، وانتزع منى كل شئ ابتداء من لهفتي وانتهاء بالتشكيك في هويتي، وعندما وجدني خاليا من كل العيوب التي رماني بها ، انتزع ورقة (بنكنوت) بزغت من جيب سترتي العلوي ، وتركني أجمع بقاياي ، وأغادر نقطة التفتيش حاملا تذمري ، ودعوات زوجتي وارتباكها.. ساعتها تمنيت أن أعود من حيث أتيت لكنني لم أجرؤ أن أعبر تلك (الخشبة) مرة أخرى .

***

- أصبح الناس أكثر خساسة .

كلما صرخت بهذه العبارة بادرتني زوجتي بعبارتها الدائمة :

- سر بجوار الحائط !

هذا الحائط الذي نسير بجواره تهدم فوق هاماتنا ، وعبرنا الدروب الطويلة ونحن نزيح الركام من على عروة قمصاننا ، ونمعن في السير الحذر تجنبا من سقوط حائط آخر . كل شئ يتساقط ، ونحن نولي ظهورنا لهذا الإنهيار .

في الأيام الأولى من مجيئنا استقبلنا الأهل والأصدقاء بحفاوة، وظلوا

وقتا طويلا يتزلفون إلينا ويغدقون علينا بهبات مفرطة ، ويتوددوا إلينا بمجاملات مكشوفة ، كانوا ينتظرون أن نخرج بنكاً من جيوبنا ، وعندما افتتحت دكانا صغيراً أيقنوا أن عمرنا المسكوب في الغربة لم يدر علينا إلاّ بالقليل ، فأعرضوا عنا ، وهم يتصايحون

- أمن أجل هذا تغربتما ؟؟

وقد تبجح بعضهم بمطالبتنا بهداياهم السابقة .. وتطاول علينا بعضهم بالقول وحينما لم أجد مناصا من مقارعتهم السباب نبذوني بالعراء أقتات سخطا مرتويا بالحسرة .. ولم يكن معي إلاّ تلك الشجرة الخضراء أشكو لها ضعفي .

- أن ثمة تصدع يعترينا

فتضمني لصدرها وتمسح رأسي برفق :

- تمالك نفسك كي لا يصيبك هذا الزلزال !

فأصيح فيها بجزع ملتهب :

- آه .. كيف لنا أن نسير في عالم فقد التوازن ؟؟

***

في وسط شارع رئيسي استقر دكاني المتواضع ، وقد دأبت للخروج من الصباح الباكر مفتتحا الطرقات بالأدعية :

- يا رزاق يا كريم .. يا فتاح يا عليم .. أصبحنا وأصبح الملك لك يا رب العالمين .. اللهم فيّض علينا من فضلك .

وكلما تذكرت جدتي أسهبت في الدعاء ، فقد سمعتها مرارا وهي تيقظ أبناءها (من النجمة) وتحثهم بصوتها الرطيب :

- أن الأرزاق توزع في الغبش ، فبادروا لأرزاقكم قبل أن تنفذ !

لذلك دأبت منذ زمن بعيد على النوم مبكرا ، والإستيقاظ مبكرا ، كي لا يهرب مني رزقي !!

وما أن أصل إلى دكاني حتى أزيح مزاليجه، وأرش الماء على جنبات بوابته ، وأتوسطه مفتتحا وجهي بابتسامة ودودة محاولا إجتذاب تلك الأقدام الراكضة، ونادرا ما كنت أحجبها ازاء تجهم وغلاظة بعض الزبائن، في أول يوم وقفت بائعا جاءني يحمل شنطته وعبوسه ، ووقف يتفحص خارج وداخل الدكان بريبة ، فابتدرته بالترحيب :

- خدامك .. ماذا تريد ؟؟

مط شفتيه باحتقار ، وزجرني بنظرة حادة ، وتشاغل بفك حقيبته المهترئة ، وأخرج (بوكا) ، وانكب يكتب ، بينما كنت أرقبه بدهشة ، وأتامل وجهه المتعب والذي ينبئ أنه مل من كل شئ، وما أن رفع رأسه حتى بادرني بصوت آمر

- إدفع هذه الغرامة !

وقبل أن أستوضحه كان قد عبرني كالريح الثقيل . وفي الزيارة التالية ما أن رأيته قادما حتى أخرجت ما حرره لي سابقا ، وسألته :

- لماذا هذه الغرامة ؟

تطلع إليّ باستغراب ، فاتحاً فمه وواضعاً يده على لحيته المحلوقة ، وعندما أعدت إليه السؤال ، بادر بفتح حقيبته وتحرير غرامة جديدة ، ومد بها إليّ ، وهو مبقي الإمساك بها ، وعيناه معلقة بوجهي ، وأطلق الكلمات من بين أسنانه :

- مخالفة ، وامتناع عن تسديد غرامة .. حذار .. ستندم حينما لا يفيد الندم!

وقبل أن أستوضحه كان قد عبرني كالريح الثقيل ومضى يزمجر بعيدا .

وفي المرة الثالثة كان أكثر صلافة وحدّة ، وبعد أن حرر الغرامة .. قال بصوت ملتو :

- يبدو أنك معبأ ضدنا !

- ضد من ؟؟

قذف بالورقة في وجهي ومضى . لأقف حائرا أمام تلك الغرامات المتكررة ، والتي لا أعرف لها سببا .. هي مرة واحدة مضيت لسدادها ، فشعرت بأني على وشك أن يزج بي في السجن ، فقد عنّ لي أن أسأل المحاسب عن نوع الغرامة التي أسددها فما كان منه إلاّ أن وبخني ، وأغلظ لي القول ، ومد صوته لتتقافز كل العيون الموجودة على وجهي :

- يبدو أنك لم تذق طعم السجن بعد !

بعدها لم أحاول أن أسدد تلك الفواتير التي تراكمت وغدت تلاً من خوف ، خوف أن أسددها وخوف إبقائها عندي . وبقيت حائرا ، وعاجزا أمام هذه المخالفات المتكررة ، والتي لا أعرف لها سببا .

***

جاءني محرر الغرامات ، ومن خلفه سار جنديان يتبعان خطواته الثقال .. مد عنقه بداخل الدكان ، وكمن لم يجد مبتغاه زفر بضيق وارتسمت على محياه حيرة فاقعة :

لا أريد ايذائك ، فلماذا تصر على ايذاء نفسك ؟؟

اغتنمت ليونته المفاجئة ، وبادرته :

- سيدي .. كل أوراقي الرسمية مستوفاة

وأشرت له بتجاهها حيث كانت معلقة في صدر الدكان ، فهشني متضايقا :

- أعلم ذلك !

فقفزت إلى مكان آخر ، وتناولت احدى المعلبات :

- أنظر كل المعلبات التي أبيعها لم تنته صلاحيتها بعد

- أعلم ذلك !

- وأبيع بأبخس الأثمان ، وأتحدى إن وجد من يبيع بأدنى مما أبيع

- أعلم ذلك .. وهذا مثار الشبهة

- أي شبهة تعني ؟

- ألا زلت متواطئا ضد وطنك ؟؟

- متواطئ .. ماذا تعني ؟

- قريبا ستعرف

ومضى يجر عبوسه وتعبه المزمن بعد أن قذف بغرامة جديدة في وجهي ، كدت أن أجن .. ما بال هذا العابس لا يقف إلاّ بدكاني لتحرير غراماته التي لا تنتهي .. أيريدني أن أرشيه ؟! ولكنني قد مددت له يدي بمبلغ زهيد، فأزبد، وأرعد، وتوعدني إن أنا فعلتها مرة اخرى ليكونن السجن منتهاي . أيريد مبلغا كبيرا ؟ ..

نعم لابد وأنه يريد مبلغا كبيرا .. فكل الذين يجاورونني لا يصيبهم هذا العابس بسوئه ، ولابد أنهم يمنحونه ما يسد جشعه .

لمحت أحد الجنديين ينسحب من خلفه ويقترب مني هامسا :

- يا أخي علقها ولن تخسر شيئا!

- أعلق ماذا ؟؟

- صورة الزعيم !!

- أكل هذا الرعب من أجل صورة ؟؟

ترك سؤالي معلقا وأنطلق في أثر ذاك العابس .. فجأة تنبهت أن كل تلك المحلات - التي تجاورني - تضع صورته العريضة في صدر محلاتها وفي زواياها.

اشتريت من أحد (الاستديوهات) صورة ضخمة للسيد الرئيس، وغلفتها بعناية ، وعدت إلى داري ، وانتزعت أغلى برواز عندي ، والذي كنت أضع فيه صورة أبي - تلك الصورة التي قذفت بها جانبا بدون اكتراث - .. وانهمكت بتلميع (البرواز) وتركتها في مكانها ، وتهيأت للنوم ، فجأة قفزت من مخدعي خشية أن يأتي أحد الدرك ، ويلمح صورة الزعيم مقذوفة على الأرض .. قفزت مسرعا وحملتها - بإجلال - واحترت أين أضعها ، وخوفا من أن يتربص بي أحدهم ، وضعتها فوق رأسي - بدلا من وسادتي - ونمت قرير العين .

استيقظت في الصباح الباكر - كالعادة - وحملت صورة الزعيم وسرت ، وأنا أكثر بشرا مما مضى .. ثمة شئ ينبئ أن هذا الصباح لا يشبه الصباحات الماضية ، لكنني لم أعر ذلك أدنى اهتمام ، وتوجهت عموديا صوب دكاني وثبت الصورة بمسمار صلب داقاً إياه بعناية خوفا أن تتشظى الصورة بضربة طائشة، وبعد أن اطمأننت لمكانها البارز ، جلست سعيدا

بانتظار محرر الغرامات .

كان الشارع قفرا من المارة ، والدكاكين مغلقة ، وأنا أجلس وحيدا ، وثمة جنود يجبون الطرقات شاهرين بنادقهم ، وما أن رأيتهم مقبلين نحوي وحتى أخذت أقبل وامسح صورة الزعيم باحترام بالغ ، وما أن رأوني على هذا الحال حتى تصايحوا :

- اقبضوا على هذا الخائن !!



البشارة

استيقظت القرية من نومها راكضة ، ونصبت عند مفترق الوادي .

الفلاحون تركوا "زاهيبهم" تستقبل الشمس وحيدة والرعاة تركوا بهائمهم ترزح في "مطارحها" تمضغ القصب اليابس وتنعم بيوم من الرغاء الممتد وبائعات الملوخيا واللبن لم يخرجن كعادتهن الصباحية وهن يصحن :

- هيا أملخيا يا بنات

والعسكريان الوحيدان الموجودان في القرية خرجا يحملان بندقيتين متصلبتين ووجهيهما تتقافز منهما حيرة ، تحاول أقدامهما إخفاءها بالركض المتواصل . في هذا الجو الراكض تبقت أشياء طفيفة تلتزم بالصمت ، فعلى غير عادة توقفت "الغبرة" في هذا الصباح المندهش وذاك السوق العتيق البالي إلتحف بالصمت الصباحي ، وظل غارقا بروائح الموز و"الشفلح" والسمن ، وان استطاعت هذه الروائح أن تتسلل عبر ممراته الملتوية منتشرة باتجاه شئ ما يشي بأن الكل يسابق الغلس صوب مفترق الوادي ، حتى أن "الحاسي" قذف برشاء الدلو جانباً وانطلق راكضا وهو يصرخ :

- اميوم أماي نشف .. كنه حس بمقدوم

ساحات القرية خلت من تلك القامات المشدودة والاصوات الممتعة ، وغدت البيوت خاوية من الأطفال وصيحاتهم المتعالية مما مكن طيور "المساملة" أن تشقشق طويلاً ، فالصغار خرجوا يحملون بيارقهم الملونة ويسابقون ذويهم نحو المقدمة ولم يتبق بداخل القرية إلاّ صرخات الرضع ، وأنات المسنين الذين يزحفون نحو قبورهم بملل وألم .

في هذا الصمت - الطارئ - كانت الحياة تتأرجح بين صرخة رضيع وأنّة مسن ، ومن وسط البيوت صعد زفير حاد .. صاخب .. ثاقب رتابة هذا

الخلاء - صدر هذا - من جسد ملقى على "شبرية" مرتفعة . كان يئن وحين يلمحها بجواره - تنضح من جسده تلك الحمى "الجامة" بقطعة قطن وماء بارد - تنفرج عيناه ويتطلع فيها بحسرة ، محرضاً إياها أن تركض صوب الوادي وعندما يئس أطبق عليها أهدابه وأنّ بثقل .

على امتداد الوادي تناثرت الأجساد في حركة دائبة فالعيون زائغة والأفواه تلهث وتلك الأقدام الراكضة اجتاحت كثيراً من الحقول لتتقصف تحتها زرعات صغيرة ، وصيحات محذرة .

حماة "الزاهيب" تلاشت صرخاتهم في هش هذه الجموع عن محاصيلهم ، فكتمت غيظها وشاركت تلك الأقدام دعس ما تبقى من زرع منتصب ، ويمموا بوجوههم صوب مفترق الوادي .

يقولون أنه سيأتي - في هذا اليوم - مع الشمس .

***

عصر الأمس كان "شوعي عبده" يقرع طبلته بعنف وصوته يتردد صاخبا :

- أمحاضر يبلغ أمغايب .. أمعامل ويتي في امغلس ....

ومضى يدور في أزقة القرية صارخا :

- أمحاضر يبلغ امغايب ....

كان صوته يصل "متاكي" رجال القرية دون أن يهتم أحد لسماعه اللهم إلا صبية التفوا حوله وظلوا يسيرون خلفه مرددين ما يقول .

كانت لهجته تبدو أكثر حدة وتحذيرا من أي "حضار" سابق ، وقد تأكد أهل القرية من جدية النداء ، بعد أن أطل عليهم العسكري "موسى" في متاكئهم وهم يتقوتون بنهم ، وأشداقهم المتكورة تكاد أن تطرد عروقها النافرة بصلابة وتوتر ، وعندما رأوه يوزع بيارقا متعددة الألوان - بعدد

أفراد كل أسرة - زادوا يقينا بقدوم العامل .

كان "موسى" ينفض مؤخرته معلنا رحيله بعد أن يحذرهم من مغبة عدم ملاقاة "العامل" عند مفترق الوادي منهياً كل زيارة له بجملته التي ذهبت مثلا من لم نره .. لن يرى الدنيا

***

هذه القرية تذكر بوضوح قدوم أول عسكري إليها ، ذاك الرجل البدين، المتقد العينين ذو الشارب المعلق في الهواء وصاحب النبرة الحادة الآمرة والذي كان يصرخ في أرجاء القرية مذكراً إياهم بأنه ممثل للحكومة في هذه الأرض المنسية خلف المستنقعات والأودية، فكانوا يرفعونه بعيونهم ويسقطونه متندرين منه ومن بزته الزيتية، وعندما نفذ صراخه، ويئس من ركونه في غرفة المركز وحيدا يهش الذباب والفراغ والقضايا تعبره صوب "عقلاء" ومشايخ القرية ..قرر أن يحمل حاجياته ويغادر القرية ليلاً، وفي إحدى الصباحات أفاقت القرية بلا عسكري يصرخ فيها وهي تضحك من صراخه .

وظلت هكذا حتى جاء موسى مذكراً بسلفه إلاّ أن هذا عندما وجد صوته يمضي مع الريح حاول أن يندمج فيهم ، فقذف ببزته وبندقيته في سحارة عتيقة واشتغل بالسوق بائعاً للموز ، وأغلق المركز ، مما أغضب دورية التفتيش القادمة من العاصمة - والمكونة من مجموعة عساكر ذوي رتب مرموقة وحملها على اصطحاب "عقلاء" ومشايخ القرية للعاصمة .. كان ذلك منذ عدة شهور مضت ، حتى أن القرية اعتصمت بالصمت والحذر، وعندما أطل وفد المشايخ قادما من العاصمة غدا قدوم العامل أمراً نافذاً .

ولما مضت الأيام الأولى دون أي بادرة لمقدم العامل تناسوا الأمر وعادت

الحياة لسيرتها الاولى . بالأمس - ومع ضربات الزقار - تحركت ذكرياتهم الراكدة ، ولكي ينفذوا الأمر ، ناموا مبكرين ، ليستيقظوا - مع الغلس - راكضين صوب مفترق الوادي .

* * *

كان الليل يلفظ آخر قطراته ، وأصوات النسوة تزغرد بفرح .

أخرج لباسه المزركش من سحارته "السيسم" وحشر قامته الفارغة بداخلها ، وتناول جبته المصنوعة من القطيف الخالص ، وذات النقوش المتعددة - والتي ورثها عن جده - وشد على خاصرته جنبيته الصنعانية ذات المقبض العاجي - والتي طالما فاخر بها في المجالس ، ومن ركن منزوي من عشته تناول عصاته الغليظة ، المنتهية برأس فضي ، مدبب وناشها بيده حتى إذا رضي بزينته ، خرج وشد بغلته وامتطاها ، في حين كانت أصوات النسوة - من الداخل - تحثه على الاسراع .. التفت إليهن مزهواً :

- مع طلوع امشمس أكون بينهم

ولكز بغلته ، وخب في السير باتجاه القرية .

* * *

على غير عادة كان المركز مشرعاً بابه ، ذلك المركز الذي أغلق أبوابه من أمد طويل ، وأصبح رجل البريد - إذ كان يحمل أمراً ما وهذا نادراً - يتوجه إلى السوق ويسلم ما يحمله إلى العسكري موسى ، الذي أصبح بائع موز معروفا بسوق القرية ، حتى أن سلعته غدت مضرب مثل - كنه موز موسى -

اليوم استيقظت القرية لتجد باب المركز مشرعاً، ومن خلال فرجة الباب المفتوحة ، لمحت موسى ، جالساً ، ينفض الغبار المتكدس من على بندقيته ،

ويبلل قطعة شاش في صحن ملئ بالقاز ، ويمررها بين مفاصل بندقيته التي أكلها الصدأ ، وقد أخرج بزته الزيتية ، وشدها على قامته - تلك البدلة التي أصابها القرض في أماكن عدة من طول مكوثها بداخل السحارة المليئة بالفئران "والجدجد" فبدت هيئته مثيرة للضحك والرثاء معاً .

جاوره في جلسته تلك ، مأموره الذي اشتغل بسد ثغرات المركز بطين ، جلبه من أقصى الوادي ، كان صوت موسى قلقاً متوتراً :

- من جد ويتي عامل لنا امخريبة ؟!

وعندما لم يجد اجابة شافية على سؤاله ، انقلب على مأموره ، ساخطاً :

- كنك تحسبنا نبيع اموز في امسوق .. أنا أشاورك .

رمى الطين - بتذمر مكبوت - من بين يديه وأجاب :

- امجواب ينبى .. كنك مقريته ؟!

رد عليه بملل وضيق زائدين :

- قريته ربع مرات وعادني متعجب !!

- باكر نرى .. جلس - ذحين - نفض بندقيتك ونظفها وكبني أصلح امربعه قبل ما تفضحنا مع امعامل .

* * *

عند مفترق الوادي ، وقفت القرية تنتظر الجلاء "غبشة" الليل ، وتستعد لاستقبال العامل .. كان موسى يحصي رجال القرية ، وفي الشق الآخر ، تكلف زوجته باحصاء النسوة .

كانت عيناه تتقافزان في أعيان القرية ، وبإلحاح سأل :

- فيان الشيخ يحيى ؟!

فتهادى إليه صوت من بين تلك الأجساد يعلمه بأن الحمى تغطيه ، وقد

بقيت معه زوجته لتمريضه ، فقذف موسى ما بيده من زهور "السكب" التي قطفها من جنبات الوادي لتقديمها للعامل ، وصرخ :

- أنا بنفسي نفذت له "حضار" وامرض مش حيعفيه من امحبس .

قالها ، وانشغل بصف تلك الأجساد حسب مكانتها وسنها ، حين كانت الشمس تتسرب من معطف الليل ببطء ممل ، وقد تشاغل القوم بالاقاويل

- يقولون أنه ويتي راكب بغلة كنها امبراق .. لها جنحه

* وه .. عادوه لا نبي

- صه لا يحبسنك

* وه .. مقلت

***

علي أن أصل مع بزوغ الشمس كما وعدتهم .

ترى ماذا سيقولون حين يرونني ، حتما سيقبلون رأسي ، ويركضون بي في كل أرجاء القرية وهم فرحين ، وربما يصوبون الفضاء عبارات نارية ترحيبا بمقدمي ، عندها سأسير أمامهم مختالا وأتحرك ، وكأنني هدهد سليمان .. آه .. لقد أحسنت صنعا لاختياري هذه الملابس فمن خلالها أبدو مهيبا .. أوه .. لعنة الله على هذه البغلة ، فقد ركنت مثلي إلى خواطرها ، وأخذت تتلكأ في السير ، وتمضغ العشب المتنامي في هذا الخلاء حتما لو ظلت هكذا لن أصل مع بزوغ الشمس .

***

لم تفلح جهود موسى في تنظيم تلك الأفواج من الأجساد الراكضة من داخل القرية ، فتناثرت عند مفترق الوادي في جماعات متفرقة ، إلا أن حملة البيارق ، احتفظوا بالمقدمة ، وأخذ شاعرهم يلقنهم ما سوف يرددونه

بعد كل مقطع من قصيدته ، وتسابق الصبية إلى مقدمة الطريق ، لينقلوا خبر قدوم العامل ، قبل وصوله إلى مكان الترحيب ، وبقيت النساء متهيئات لاطلاق الزغاريد .. في هذا الجو المتأهب ، والأصوات المتداخلة ، والعيون المسكوبة بكل تلهف لرؤية القادم .

كان موسى غاضباً لأن بندقيته أصابها الصدأ - ولم تفلح محاولته السابقة في تحريك مفاصلها - ولم تعد قادرة على إطلاق حجر !!

في يمين المقدمة ، ظهر أعيان القرية محتزمين بنادقهم "التشيكية" ذات "المعبر" الضخم وقد "تمطقوا" بمعابر عديدة ، وشب بينهم جدل حول من يتقدم بالسلام على العامل ، وبعد شجار طويل ومناقشة شديدة ، رضوا أن يتقدمهم خطيب الجمعة - السيد عبده هادي - فهو يجيد الكلام النحوي ، وله فصاحة اكتسبها من وقوف المنابر ، وخطب الجمع ، تسعفه حين يتلعثم .

كان أصحاب الحقول المجاورة لمنطقة الالتقاء يشاركون موسى تذمره ، فهم متذمرون على ما حاق بحقولهم من عطب ، تلك الحقول التي تقصفت محاصيلها تحت أقدام المستقبلين .. قال أحدهم لموسى :

- مه .. امعامل شيعوظني بدل امواجيم يلي تقصف ؟!

فلكزه موسى ببندقيته الصدئة محذراً :

- حسك عينك تتهرج

من هناك - من بعيد - جاء داود "ريس"القرية يحمل وجهه الأسود ، وتعبه اليومي ، وقد استقرت تحت إبطه أدوات حلاقة بدائية ، مدّ رأسه من فرجات الأجساد المتزاحمة ونادى بموسى :

- واموسى .. ترى أنا شادنبع للمعامل

زجره موسى بغلظة :

- أقلك .. تاراس امعامل مه .. تحسبها راس امخادم ؟!

انسحب داود وهو يمسح مديته بإزاره المتسخ ، وجلس بعيداً ، ينظر إلى الزقارين وهم "يحمون" طبالهم الكبيرة و "يحمسونها" على نار اشتعلت من وقت مبكر ، ويمسحون طبالهم براحة أكفهم ويعيدونها إلى ألسنة النار .. تنهد بعمق ، وجلس يشحذ شفرته بحجر مستطيل تدلى من عنقه وهو يتمتم:

- لجا .. شادنبع له

* * *

لم تتبق إلاّ عدة فراسخ وأكون بينهم .. الذي أخشاه أن تتلكأ هذه البغلة ولا أصل في الوقت المضروب بيننا ليت لهذه البغلة ساق ذاك الكلب الذي عبرني للتو . كان يقفز قفزاً سريعاً ، منتظماً ، ولسانه تتدلى بنهم ، يبللها بريقه اللزج ويعدو وكأنه يسابق الغلس .

لم يكن أمامي إلاّ أن أتحمل تلكؤها البطيء واجترار ما أشتهي من خواطر .

* * *

الأفق يتفتق عن شمس باهتة ، مدت خطوتها على الكون بخدر، فبدت أشعتها أرجوانية ، باردة وكأن المدى "يزحر" بميلاد يوم جديد ، تدفعه نسائم من صباحات الحقول الريانة ، والأرض ارتدت بطلّ مرتو، وقامات سنابل خفيضة .

هناك - عند مفترق الوادي - انهمك موسى - للمرة العاشرة - بصف أهل القرية ، صفوفا متوازية ، يتقدمهم رماة البنادق ، ومن خلفهم النسوة المزغردات .. تاركاً للبعض حرية التهيؤ للاستقبال ، فصعد بعضهم على

ربوات الحقول ، مادين أبصارهم صوب الطريق الممتد ، والمنتهي بخلاء فسيح ، علهم يلمحون العامل ، قبل أولئك الصبية الذين انشغلوا بمطاردة العصافير والفراشات المستيقظة للتو .

صرخ أحد المتجمهرين :

- كني أرى عصفور متبل علينا .. كنه هو

تهادى هذا الصوت إلى موسى الذي رفع صوته بانفعال :

- اطلقوا المعابر وغطرفوا يا حريم

تطايرت المعابر ، ودوى صوت الرصاص مخترقاً ذاك الصباح الرائق ، واكتسى المكان برائحة البارود .. وزغاريد ممتدة تسيل دلالاً ، واختلطت الأصوات بحدة مع أصوات الطلقات النارية ، وظل صوت موسى ضائعاً ، وهو يصرخ بين لحظة وأخرى سائلاً :

- هه .. وصل

فلا يسمعه أحد ، فيقلع عن صراخه، ويلقي ببصره إلى نهاية فلا يلمح إلا كلبا يعدو بقلق ، وحين بلغ القوم وقف لاهثاً .. معلقاً رقبته صوب موسى ، الذي زجره ، فصدر منه نباح متكاسل ، قصير ، وبقي واقفا وسط أفواج المستقبلين ،فهم موسى أن يقذفه بحجر إلا أنه تراجع حين سمع أحدهم يقول:

- كنه كلب امعامل

فجأة انطفأت تلك النشوة الفائرة ، وخمدت الأصوات وعادت الأعين تترقب ولادة المدى .

للتو تفتق الأفق عن شمس باهتة ، مخضبة بصفرة فاقعة ، وخطت تصعد إلى عرشها ، حين انقلب بعض القوم هامين بمغادرة المكان .. التفت موسى صوب مأموره يائسا وهمس به :

- مقلتلك .. تات مخربية !!

وانثنى ، ليعطي أمراً بالانصراف فاقتنصت عيناه بغلة ، تشق الوادي مخبة وعلى ظهرها استقر شخص مهيب الطلعة ، فصرخ موسى بتهلل :

- أتى امعامل .. اطلقوا امعابر وغطرفوا يا حريم . .

فتراجع من هم بالذهاب عن نيته ، واستعد الرماة ، واقتربت النساء ..

فخرج صوت جهوري من بين الصفوف :

- مقلتكم ذا كلب امعامل ..

فطغى على صوته عيار ناري حاد ، انطلق صوب الفضاء محدثاً دوياً، ومحرضا تلك الزغاريد أن تتصاعد ، ليعود الضجيج ، وتنطلق العيارات النارية ، في كل الاتجاهات ، وتخبطت الأصوات حتى أن الكلب مد رقبته للأسفل في نباح متواصل دون حراك وما أن بلغت البغلة بصاحبها ، حتى تخاطفته أيدي كبار القوم ، وأنزلوه ، وأحاطوا به ، وتقدم نحوه "عبده هادي" ليلقي خطاب الترحيب ، إلاّ أن القادم كان صوته حازماً - بالرغم من تلك البشاشة البادية على محياه - وهو يتطلع في تلك الوجوه المحيطة به :

- فيان الشيخ يحيى ؟!

لم يجبه أحد ، وظلت همسات خافتة تشتعل بين المجتمعين :

- مقلتلكم يعرف كل شئ

آمن آخر على قول المتحدث باستغراب :

- عاده واصل وعرف كل شئ .. كيف لو طول في امقرية ؟!

أعاد القادم سؤاله بنبرة أكثر الحاحاً ، فتحرك موسى من بين الصفوف وهو يتلوى معتذراً :

- حاضر يا سيدنا ذحين يكون بين يديك .. بس انت ارتاح من امسفر

وتحـرك الموكب يزف القـادمين صـوب المركـز تسـابقـه زغـاريد النسـوة
ـوات طلقات البنادق، وقد بدأ الضـيف أقل هيبة بالتـفاتاته المتكررة،
ؤاله الذي لا ينقطع :

- فيان الشيخ يحيى ؟!

* * *

إنسل موسى من صفوف المرحبين مصطحباً ثلاثة رجال تبرعوا باحضار
يخ يحيى .. كان موسى يسير مدمدماً بصوت خفيض وهو يحث الخطى:

- عينه كمجمر .. مالك في أول يوم وكسرت أوامره .. شيعذبك يا
ـى !!

وعندما ، فطن أن هواجسه اخترقت مسامع مسايريه ، أحجم ، وشد
ـيته بيده حتى التصقت بظهره :

- إن كان حضرتوه قبل ما يصل امعامل امركز لكم اموز كله .

فانطلقت السيقان مهرولة ، ومن خلفها ركض موسى ، يقدح فيهم تلك
ـمة المفاجئة :

- ولكم عليّ ما تصلكم يد في امقرية

* * *

في عشة واسعة كان جسد يفور بالحمى ، والأنات ، تغطيه بطانية
كلة وتفوح منه روائح "أبو فاس" و"الكالمين" امرأته تسنده على ذراعها ،
ب تلك العينين التي تحرضها للذهاب لمفترق الوادي وعندما تيأس تطبق
ـها أهدابها ، وتئن .

كان لوقع أقدام الرجال في العشة ، دهشة ، اتسعت لها عين المرأة
ـهت :

- كذا لا دستور ولا ناموس ، وكأن يحيى ميت

لم يمكنها موسى من أن تمد إستنكارها بعيدا ، فقد دفعها بيده وأشار للرجال الذين معه بحمل المريض . وما هي إلاّ لحظات ، وكانت الأيدي ترفع الجسد عالياً ،

وتركض به خارج العشة ، وصوت المرأة ارتفع عالياً :

- يا غارة الله عليكم .

وعندما يأست من موسى ، ورجاله ، صرخت مستغيثة :

- وه يا اهل امقرية الحقونا .. شلوا يحيى وكنه ميت

فذهبت استغاثتها تزمجر في القرية دون ان تجد جواباً ، فارتمت باكية حين واصلت الاقدام - وموسى من خلفها - الركض الحثيث ، وحينما بلغوا المركز كان القادم قد دخل للتو ، فتبعوه مسرعين ، وقذفوا بالمريض بين قدميه ، حين كان صوت موسى أكثر ثقة وهو يتحدث :

- مولانا .. هذا يحيى يلي خالفا أمرك

وما أن رأى القادم ذلك الجسد ملقياً تحت أقدامه حتى انكفأ عليه يقبل رأسه ويده :

- سيدي الشيخ .. امباشرة ليَ .. بنتك وضعن .. هبن ولد سموه يحيى.. هه يا شيخ امبشارة .

١٩/٧/١٤٠٩هـ

جدة - عرعر

□□□

ليس هناك ما يبهج

- ألم يكن بمقدوره أن يتأخر قليلا ؟!

سالت تلك الجملة في خاطره وهو يخترق المدينة من شمالها إلى جنوبها .

كانت ثمة غبرة عالقة في الجو أحالت الأشياء إلى اللون الرمادي الباهت، ولم تستطع أشعة الشمس الغاربة أن تبدد ذلك الجو الذي استحال إلى عتمة مبكرة ، كان يسير بسيارته المرسيدس مخترقا شوارعَ واسعة اصطفت على جنباتها مقار شركات ومؤسسات ومحلات تجارية فخمة وقد تناثرت فيما بينها لوحات دعائية صممت بأشعة الليزر لتومض أضواءها وميضا ساحرا في مثل هذا الوقت ، وكعادته كان منجذبا لمعرفة تلك الشركات والمتاجر الأنيقة ومراجعة السبل التي تمكنه من بناء علاقة وطيدة بأصحابها .

جذبه إعلان كبير عن وجود سلعة لأول مرة تعرض بالشرق الأوسط وتبحث لها عن وكيل بالداخل، كاد يتوقف لمعرفة نوع تلك السلعة والشروط الواجب توفرها في الوكيل المرغوب به .. امتعض كثيرا حينما تذكر المشوار الإلزامي الذي يقطعه فضرب مقود السيارة بعنف وتمتم بقرف :

- لماذا علينا أن ننقاد لهذه التفاهات باسم الواجب ؟!

كان عليه أن يقرر إما التوقف أو مواصلة سيره وفي تردده انبثقت عدة أبواق من الخلف ليعطي إشارة ويتمهل قبل الدخول إلى شارع الخدمات .. كانت السيارات المنطلقة من الخلف تتجاوزه بصعوبة وتواصل عبورها المسرع وإن لم يجرؤ أي منهم من رفع أصبعه الأوسط في الهواء كما هي العادة حين يعبرون عن استيائهم .. تمكن من الدخول لشارع الخدمات بعد جهد ، وتوقف جانبا ليكتب رقم هاتف ذلك الإعلان ، وبعد أن أنجز تلك المهمة أعاد (نوتته) إلى جيبه وانطلق ليكمل مشواره .

كان شيء ما يحترق بداخله فيخرج على هيئة تأوهات متتالية .. أحس بضيق يجثم على صدره ، ويتمدد فلا يعرف كيف يبدده ، أخرج سيجارته وأشعلها تاركاً الدخان يملأ مقصورة السيارة .. تمنى لو أنه تجاهل تلك المهاتفة التى أجبرته على ترك أعماله .. فكر جديا أن يتجاهل الأمر ، ويوكل للجيران مهمة إكمال تلك الطقوس التى كلما تذكر تفاصيلها إزداد نفورا، لكنه وجد نفسه لا إراديا منجذبا لإكمال مشواره الذي بدأه .

كان شاردا في تلك الشوارع التى تهرب من عينيه ولا يتبقى أمامه سوى طوابير ممتدة من السيارات التى تسعى كالنمل، ووجوه مكفهرة تدلق بصرها في ذلك الخط الأسفلتي الطويل ، نظر إلى وجهه في المرآة فلم يكن أحسن حالا من تلك الوجوه التى تعبره أو تتلاقى عيناه بها عند الوقوف أمام إشارات المرور ..

- لم يعد في الوجوه بهجة كما مضى

هجس بهذه الجملة ، وتواردت إلى خاطره صور ذلك الحى الضيق الذى كان يحيا به حين كان يضحكه أي شئ .. أما الآن فلم يعد ثمة ما يبهج حتى ذلك الحى لم يعد يطيق المرور به ، ويتحاشى ذكره بين أصدقاءه الجدد كى لا يلصق به العار ويتهم بأنه طارئ على الطبقة التى وجد نفسه فيها بمناصرة أرحامه والذين ادعوا أكثر من مرة بأنه سليل مجد، تنهد بعمق وأدار مقود السيارة ليسلك إحدى المخارج المؤدية للأحياء الجنوبية .. سمع نغمات جهاز الهاتف تتردد، لم يعد الهاتف السيار يشبع نزوته التى كان يقوم بها ، ففي الأيام الأولى كان يرفع سماعة هاتف سيارته ويفتعل الحديث ممسكا مقود السيارة بيد واحدة بينما الأخرى يسندها على المقعد الأمامي ناظرا إلى العابرين به بترفع ، لازال الهاتف يرن بنغمات هادئة ، رفع

السماعة وظل صامتا، وما أن سمع بمحدثه حتى هلل ورحب كثيرا، وحاول الاعتذار بتعثر :

- سيدي ألا أستطيع أن أؤجل موعد الليلة ؟

- كنت أعلم أنك لست محل ثقة

- عذراً يا سيدي ستجدني رهن بنانك .. ولكن ظرفاً طارئاً حدث

- في عالمنا لا توجد ظروف طارئة

- لكن والدي .. إلاَّ أن محدثه قطع جملته وأنهى المكالمة بصرامة :

- إذا لم تتواجد قبل العاشرة فإن الصفقة ستطير من بين يديك

أرخى سماعة الهاتف ساخطاً :

- ألم يكن بمقدوره أن يتأخر قليلا ؟!

أحس بشئ ما يتآكل بداخله ، تمنى لو أنه يستطيع البكاء ..فتباكى إلاَّ أن وجهه ظل جامدا بينما كانت ذاكرته تفرز ندماً خصبا، فانفجر صارخا بعنف:

- لو انقدت لسخافاتك فسوف تخسر كل شئ !!

كان يرغب في أى شئ يوقف تلك التداعيات ، فأسقط شريطا بجهاز التسجيل لينبعث صوت محمد عبده مترنما :

هلا بالطيب الغالي

عزيز وشوفتك منوة

تمايل في البدء لكنه تراجع ، وأغلق الجهاز بسرعة ، وهو يتمتم :

- لا .. ليس إلى هذا الحد

كان ثمة صراع عنيف يحتدم بداخله، وهو يحاول أن ينتصر لقناعاته ... وحسم ذل الإحتدام بجملة أخذ يرددها مراراً :

- نحن نعيش مع الموت ، فلا داعى أن يعكر الأموات حياتنا

انشرح لهذه الجملة ، وأعاد الشريط لموضعه ، فانطلق الغناء رخيما :

ترى ما جى على بالي

أشوف عيونك الحلوة

توقف عند آخر إشارة تفصل ما بين شمال المدينة وجنوبها حيث كان يلمح الشمال من خلفه - من خلال المرآة المثبتة في منتصف زجاج السيارة - بأضوائه ، وشوارعه الفسيحة وقصوره، ومتاجره بينما كان وجهه يستقبل الوجه الآخر لهذه المدينة النائمة علي خاصرة البحر .. ذلك الوجه البائس حيث البيوت المتداعية المتلاصقة والتى تستند ببعضها خشية الوقوع ، وتلك الشوارع الضيقة التى تختبئ في ثناياها روائح القمامة المكدسة ، والمياه التى تنز من بيارتها فتترك شوارعها موحلة طوال العام .. وأولئك الناس يسيرون بانكسار وأبصارهم تتابع تعرجات الأزقة التي تسلم بعضها بعضاً .

كان يرتب جملا معينة يفاتح بها من استبطأه أو عاتبه، وحين كان يرددها في داخله بدت له لينة لا تستوجب أن تقال لأولئك المنسيين في حياته، وعقد العزم أن ينهى مأموريته ويعود بأسرع وقت ممكن .

عندما بلغ الحى كان الليل يتسلل - بهدوء - بين مفاصل الشوارع الضيقة ، وينثر قطرات من ليل موحش ، فتنطوى الحارة على أزقتها الملتوية الضامرة .. كان المصلون الخارجون من صلاة المغرب يتقاطرون صوب صوان العزاء ، وكان حديثهم منصباً على تلك الجثة التى لم تدفن إلى الآن ، فعلى باب المسجد قال الإمام :

- كنت أنتظر أن تدخلوا بالجنازة كى نصلى عليها

فرد عليه محمد البكيري باقتضاب :

- ماذا نصنع وابنه لم يحضر إلى الآن !!

- خافوا الله كان علينا أن نصلى عليه صلاة الظهر

- يقولون أن ابنه سوف يأتى

إستعاذ الإمام كثيرا، وتناول حذاءه ومضى يسعى بين تلك الأزقة الملتوية.

دار بسيارته حول الحارة باحثا عن مكان لها .. كان يسير ببطء بين منعطفات الحارة غير منتبه لذلك الغناء المنبثق من سيارته :

هلا بالطيب الغالي

عزيز وشوفتك منوة

فلمح جارهم القديم يوسف الغميري يصفق كفا بكف، ويتحولق، جاذبا بعض الواقفين وصائحا بهم :

- أنظروا إلى أبناء آخر زمن

فسارع بإغلاق جهاز التسجيل ، وابتسم للمتطلعين إليه - ابتسامة متعثرة أقرب للإعتذار - تلك الابتسامة التي بادلها الغمري ببصقة كبيرة على بعد أمتار من حذاءه ، وصاح منفعلا :

- يا شيخ .. استحي

أحس برغبة جامحة لأن ينزل ويلقي بقبضته بوجه هذا العجوز وأن يعود من حيث أتى ، فلم يعد يربطه بهذا المكان سوى تلك الجثة المقذوفة والتى سيردمها بعد لحظات .. فكر جدياً في أن يعود من حيث أتى .. وقبل أن يقدم على تنفيذ فكرته هجس :

- لم يعد بيني وبين هذا الحى سوى تلك الجثة وردمها فلا ضير أن أتحمل نتانتهم للحظات !

واصل دورانه حول الحارة مرارا .. كان يخشى على سيارته أن يتركها في إحدى هذه الأزقة فتتعرض للتلف أو السرقة ، مما اضطره لايقافها بعيدا ، وترجل قاذفا بنفسه بداخل تلك المنعطفات الحادة .. كان يسير واضعا يده على أنفه حيث ترامت القمامة بشكل عشوائي ونزت روائح البيارات الطافحة، وسال ماؤها في الأزقة موحلا راكدا ، وفي سيره بإحدى المنحنيات المظلمة غاصت جزمته في الأوحال فاشتاط غضباً ، وأخذ يلعن كل من يقطن هذا الحي، وعندما لم يجد من يكترث لغضبه تنحى جانبا ، وأخرج منديله الحريري الأبيض ، وأنحنى ليمسح جزمته باشمئزاز .. وأعاد منديله إلى جيبه فأحس بلزوجته ، فقذف به بين تلك الأوحال التى كان يعبرها مجموعة من الصبيان وهم يتراكضون ويتصايحون لمجموعة أخرى كانت تقف بالخلف:

- طيرة

ازداد حنقه ، أحس بـ (طرطشة) تلك الأقدام الراكضة تصيب ثوبه ، فصاح بهم :

- النجاسة عالقة بكم أيها الكلاب . ولم يكن يكترث الأطفال به كثيرا فقد مضوا يتقافزون بين تلك الشوارع التى تسلم بعضها لبعض ، بينما تبعتهم مجموعة أخرى تحاول الإمساك بمن تصل إليه أيديهم .

عندما واصل مسيرته كان يوسوس لنفسه :

- أليس من الخير أن تردم مثل هذه الأحياء بدل أن تظل وصمة عار في وجه مدينتنا الجميلة !!

واصل سيره بحذر فيما كانت الحارة تكتظ بالصبيان في كل زواياها حيث تحلقوا على شكل جماعات كل مجموعة تمارس إحدى اللعبات الليلية، وبقيت الصبايا منزويات عن تجمعاتهم في حلقات أخرى يلعبن لعباتهن

الخاصة بهن بينما تناثر باعة (اليغمش) و(البسبوسة) و (البطاطا) و(الايسكريم) صائحين بما لديهم ومحفزين أولئك الصبية لشراء ما تبقى من مأكولاتهم ، كان يسير وهو يحيك اللعنات بصمت :

- من هنا تخرج الجرائم .. كل واحد يخلف ما لا يقدر على تربيته

أسلمه أحد الأزقة إلى برحة واسعة استقر بها رجال الحى المنشغلين بتجهيز الميت ، وسمع أحدهم يصيح بالحضور :

- يا هوه .. أخرتوا الجنازة كثيرا .. ألم تسمعوا بأن إكرام الميت دفنه ؟!

وقال آخر :

- كان من المفترض أن نصلى عليه الظهر

- لكن ابنه لم يأت إلى الآن

- أي ابن هذا ؟! .. لم يتذكره حياً، أيتذكره ميتاً ؟!

- على أية حال لقد قمنا بواجبنا وكفناه وحنطناه ، وإذا لم يأت نصلى عليه العشاء وندفنه . توقف الحديث فجأة حينما صرخ السكري :

- أنظروا .. ها هو قادم

كان منظره مهيباً ، وهو يتدفق صوبهم ، فالتف حوله الحضور معزين، فكان يدفعهم عن الالتصاق به بتأفف وضيق زائدين :

- جزاكم الله خيراً

وقاده أحد كبار السن وهو يردد جملته بتودد :

- تعال يا بني ، وألقِ النظرة الأخيرة على أبيك وودعه

فتملص من يده بحركة مفاجئة :

- لا داعى لذلك !!

حاول أن يصلح تلك الغلطة الفادحة بكلام كثير ، وافتعال الحزن العميق،

فكانت تجرى على شفتيه دون أن يستطيع تدارك الخجل الذى نما في داخله وجعله يهذى بجمل مفككة :

- إنه يلاقي كريم .. أنا أخاف من منظر الأموات .. لذلك لم أزره أثناء مرضه .. أرجوكم لا تحملوني ما لا أطيق

كان يتحدث بعشوائية ولا يدري لمن يوجه كلامه ، فجأة توقف عن الكلام وقرر أن يتعامل معهم كما يشتهي دون قيود تلجم قوله أو فعله ، خاصة بعد أن ارتفع صوت بداخله :

- ما الذى يحملك لأن تعتذر لمثل هذه الحثالة

فبتر حديثه بجملة مقتضبة :

- جئت لأدفنه

كانت العيون ترمقه بتعجب ، وهمسات موارية يتبادلها كبار السن بشئ من الأسف حتى أن أحدهم تضرع إلى الله بصوت مسموع :

- اللهم سخر لي من يعزني عند الموت

فأمن من كان قريبا منه ، بينما نهض الغمري من مكانه غامزاً :

- أن قلبه رقيق لا يتحمل رؤية الموتي ففي مثل هذه الأوقات لايطيب إلاّ الغناء

فنهره عباس الطائفي ولامه ، فترك المكان وانطلق يلعن الذرية التى تورث الذل والندم ، فتقدم عباس معتذراً وضاغطا على كتفه :

- كانت أمنيته الوحيدة أن يراك . بالامس نهض وطلب صورتك وقبلها وبكى، وعندما لفظ آخر أنفاسه كانت صورتك بين أحضانه

- يكفى يا عم عباس .. الله يرحمه

فصمت ، وانسل من بين المجتمعين يوارى دمعة كادت تطفر من عينيه ،

ظل واقفا بقلق بينما كان المجتمعون يتساءلون :

- في أي مقبرة سوف يدفن ؟!

وظل تساؤلهم معلقا دون أن يجيب عليه أحد ، وان كانت عيونهم معلقة بابنه ينتظرون أن ينطق بكلمة فلا يرون إلاّ رجلا متأنقا بادى الضيق والإشمئزاز مما يحدث .

في هذه الأثناء ظهر عيسي - بائع الخردوات - والذي كان على صلة حميمة بالمتوفي فركض صوبه وحضنه باكيا :

- لو تعلم كم كان يحبك ؟

فأبعده عنه بضيق :

- هل تتطيب من مياه البيارات ؟

وزجره بحده :

- ابتعد عني ..

بعد هذه الجملة انسحب الكثيرون ، وتلطف بعضهم بجر عيسي الذي انخرط في بكاء متقطع تخرج الكلمات من بين شدقيه محترقة :

- النار لا تخلف إلاّ رماداً

ولازالوا يسحبونه برفق ليبعدوه فلم يستجب لهم إلاّ بعد أن دخل إلى الغرفة التي يرقد بها المتوفي متلمسا رأسه من خلال الكفن وقبله بين عينيه، ودلق أدعية قصيرة ، ومضى .

تبقّى قلة من أهل الحى ، وقد اختلفوا على الدفن فالبعض يرى أن يدفن صبيحة اليوم التالى بحجة أن الدفن ليلاً مكروه ، والبعض الآخر رأى أن يصلى عليه صلاة العشاء ويدفن قبل أن يصيبه العطب خاصة وأنه توفى صباح اليوم ولكن بعضهم أحجم عن إبداء الرأى معللاً أن القرار الأخير

لابنه الذى ترك بالخارج .. كان الكل رافضاً أن يفاتحه في هذا الأمر ، منتظرين ما سوف يفعله ، وحين ارتفع أذان العشاء كانوا لا يزالون محتارين حتى أن إجاباتهم على الصبية الذين بعثوهم ذووهم للاستفسار عن المقبرة التى سوف يذهبون إليها لم تكن تحمل إجابة محددة .. فكانوا يدفعون بعضهم بعضا للحديث معه لكن كل واحد كان يعتذر بعد أن يطلق نعتاً ملائماً لذلك الابن الذى وصف بأنه متعجرف ، وعاق ، وسافل ، ومنحط ، فتبرع عباس الطائفي للحديث معه رافضاً اعتراض أخيه :

- ألم يكفك ما سمعته منه ؟

فرد عليه :

- لم يراع أباه ، وكما يقول المثل من أجل عين تكرم مدينة .

كان الابن يجلس بالخارج متأففاً ، ومتذمرا ، وما أن رأى عباساً مقدماً عليه حتى بادره بالسؤال :

- ألم تنتهوا من تكفينه .. الوقت يمضي مسرعاً وأريد أن أنتهى من هذا الأمر

امتعض عباس من تلك النبرة ، وتمنى أن يصفعه على وجهه لكنه تراجع ورد عليه متهكما :

- أما هو فقد لاقى كريماً - كما تقول - أما أنت فستلاقى جباراً

- كلنا سنلاقيه ، فدع لسانك في مكانه

فانسحب من أمامه ساخطاً لاعناً .. ومعطياً إشارة بإخراج الجنازة التى كانت تترجرج بين أيدى حامليها الذين خرجوا من ثنايا الحارة وكأنهم ينتظرون هذه اللحظة ، واتجهوا بالجنازة صوب المسجد ، فأوقفهم آمراً بإنزال الجثمان ، فاستجابوا له مستغربين طلبه ، بينما كان صوته يرتفع عاليا :

- سأقوم بدفنه في حينا لكى أتمكن من زيارته بين الحين والآخر

فتغامز الحضور بسخرية ، وأردف الحسيني :

- ونعم الابن، دعنا نصلى عليه جماعة وسننقله إلى حيك ليدفن بجوارك

وأشار إلى السيارة التى أحضروها لنقل الجنازة ، فرد عليه بضيق :

- جزاكم الله خيراً على ما فعلتم .. ويكفى هذا ، فأنا سانقله بسيارتى

فقال أحد الشباب من الذين رأوه يدخل الحارة بسيارته المرسيدس :

- لكن سيارتك لا تصلح لنقل الموتى ..

وأردف الطائفى بنبرة جافة محتدة :

- وماذا يفعل هؤلاء الذين يريدون أن يحضروا دفنته

فرد بجفاف :

- هذه ليست مشكلتى ، الذى أعرفه أن علىّ أن أدفن أبي فى المكان الذى يريحنى ، أو ليس أنا المسئول عن دفنه ؟!

ازدراه الكثيرون ، لكنه لم يكترث لأصواتهم المتداخلة بالاستنكار والشتم ، فقد اتجه صوب الجنازة وخطف الجثمان بين ذراعيه ، وانطلق بين الأزقة الضيقة يذرع الخطى تاركاً أصواتهم ودهشتهم تملأ المكان ، ولم يكن يتبعه إلاّ عباس الطائفى صائحا به :

- خذ هذه الأوراق فأنت تحتاجها لدفنه

كانت خطواته أوسع من أن تلحق بها خطوات عباس المتعثرة والذى كان يحاول الركض للحاق به فيلعنه مرة ومرة يلعن الكِبَر الذى لم يمكنه من إيقاف ثوراً كهذا .

وصل إلى سيارته ، وترجى أحد المارة أن يفتح له الباب الخلفى حيث قذف بأبيه هناك وسط ذهول الكثيرين ممن تبعه ، وصعد سيارته ، وأدار

محركها ، وانطلق بعيداً عن تلك الأصوات التى اتبعته بينما كان المسجل يصدح بتلك الأغنية :

هلا بالطيب الغالى

عزيز وشوفتك منوة

شعر بالارتياح حينما غادر ذلك الحى ، نظر إلى ساعته فأصيب بالهلع حيث كانت عقاربها تركض متجاوزة التاسعة والربع ، فرفع سماعة الهاتف، وضغط على الأرقام بسرعة ، انتظر للحظات ، ورفع صوته مهللاً ومحاولاً الاعتذار :

- أرجوك أريد أن أتأخر لبعض الوقت ، فلدى ظرف طارئ

كان صوت محدثه يخترق مسامعه بصلف :

- وقتنا ليس لعبة ، وأنت تعلم ذلك .. وكما أخبرتك : إذا تأخرت عن العاشرة فإن الصفقة ستطير إلى سواك ، فالجميع هنا ، والكل يريدها

فاعتذر بارتباك :

- سأكون عندك في تمام العاشرة !!

انحرف بسيارته باتجاه الخط السريع ، مُهَدِّئاً نفسه :

- لا بأس أن يتأخر دفنه ساعة أو ساعتين !!

وانطلق مسرعا صوب الموعد المحدد .. ممنياً نفسه أن لا يتأخر عن الموعد.

* * *

أوقفت سيارتى أمام بوابة القصر ، وأخذت أرفع الأنوار الأمامية عالياً مشيراً لحارس البوابة بفتح الباب لكنه ظل من داخل كبينته يشير لي بالرجوع ، فنزلت من سيارتي وتوجهت إليه، وأنا عازم على توبيخه .. لكن

لغتي لم تسعفني - كان حارساً جديداً أقرب الظن أنه من الفلبين - فحاولت بلغة متداعية - تعلمتها من خلال سفراتي المتلاحقة - إفهامه بأنني أحد الأصدقاء المخلص لسيده لكن وجهه ظل مستفزاً يرطن بكلمات أقرب إلى التحقير منها إلى التفهم ، وبينما كنت أنثر كلماتي المتداعية خرج من غرفته لاستدعاء كبير الحرس ، خلال هذا الوقت وقفت خلفي سيارة (روزرايز) وقد ضغط سائقها على البوق بتواصل متقطع في حين كنت أشير إليه بتمهل حتى يأتي الحارس لكنه واصل إصراره على الضغط على ذلك البوق الذي غدا صوته مزعجا لدرجة أن السيدة الحسناء التى كانت تقتعد المقعد الخلفي استثيرت ومدت عنقها من خلف النافذة غاضبة ، وصاحت :

- من هذا الكلب الذي تجرأ وأوقف سيارته عند المدخل ؟!

عرفت من ملامحها أنها الزوجة الجديدة لسيد القصر فقد لمحتها مؤخرا معه في إحدي السفريات التي جمعتنا - كان ذلك في سويسرا - وكنت أسترق إليها النظر بانبهار وهي محاطة بالوصيفات والخدم ، كانت تبدو كإحدي عجائب الدنيا السبع فلها جمال لم أر له مثيلاً قط .. وكنت أمني نفسي بأن تصبح لى زوجة في مثل جمالها ، وأخمدت خاطراً شب بمخيلتى بأننى لن أتمكن من ذلك إلاً وأنا على مشارف القبر ، حين هممت :

- لا تيأس فغداً لم يأت بعد

وأجزمت بأن هذه الحورية لم تقبل به إلاً من أجل تلك الأموال الطائلة التي يربض عليها ذلك الكهل .

أفقت من خواطري على صوتها المنفعل وهى تصيح بسائقها بغضب :

- أجرف هذه السيارة أمامك

فهرولت إليها معتذراً :

- عفوا سيدتى .. لم يتعرف عليّ الحارس الجديد مما اضطرّني أن أقف أمام البوابة

أشاحت بوجهها عنى ، وهي تمطرني - وأشباهي - بشتائم جعلتني أقف مذهولاً لا أعرف كيف أتصرف ، وعندما رأتني لا أزال واقفا صرخت في وجهي :

- تحرك أيها الأهبل وأزح سيارتك من مكانها قبل أن أزيح عمرك

فركضت لسيارتي بعد أن رجوت سائقها أن يمكنني من العودة للخلف .. كان رئيس الحرس قد وصل وسمع من سيدته ما جعله يذرف الإعتذارات ويطأطئ رأسه مراراً متمنياً عليها أن لا تعكر دمها ، فمرقت بسيارتها وهي تتوعده، كنت أتوقع أن يعتذر إليّ لكنه رفع حاجبيه ، وأخذ يرطن للحارس الفلبيني ، وما أن أعدت المحاولة للدخول حتى زجرني بغلظة :

- أرجوك يا سيد .. يكفى ما حدث ، لقد أوقعتنا في حرج مع سيدة القصر ولن يمر ما حدث بسهولة

- أولا تعرفني ؟!

- أعرف من أعمل لديهم وهذا يكفي

- ولكن لدي موعد مع سيدك

وبدون أن يتحدث توجه إلى أحد التليفونات المعلقة على تلك البوابة الضخمة وضغط على ثلاثة أرقام وأخذ ينتظر بتحفز ، ودلق كلمات من التحيات والتبجيلات وأخبره بوجودي بكلمات مفككة سريعة وأخذ ينصت باهتمام وهو يردد :

- أمرك يا طويل العمر .. أمرك

وأعاد السماعة إلى موضعها ، وحدثني بلهجة محايدة :

- عفوا كل المواقف (فل) يمكننك الدخول سيراً
- وماذا تظنني ؟!
- وماذا تظن نفسك ؟!

وغمغم بكلمات كانت أواخرها تقطر بشتائم مواربة، وأطلق كلمات عالية بلغة أخرى لم أستطع تمييزها حيث كانت خليطاً من لغات متداخلة وإن كنت مجزماً بأنها استكمال لتلك الشتائم التي بدأتها سيدته ، وانسحب دون أن يترك لي فرصة الاستيضاح، وأشار للحارس الفلبيني أن يسمح لي بالدخول سيراً على الأقدام وانسل إلى داخل القصر.

كانت ثمة غصة تعبر حنجرتي وغضب يتمدد في صدري من تلك الانفعالات والكلمات التى صدرت من كبير الحرس ، وكنت عازماً على مفاتحة سيد القصر بسوء سلوكه ، ومقترحاً عليه استبداله بشخص أكثر تفهما منه .

أوقفت سيارتي جانباً ، وغطيت جثة أبي بالفرو الذي كنت اقتعده وأغلقت الأبواب ، واتجهت إلى بهو الضيافة .. لأول مرة أسلك الطريق إلى البهو سيراً على الأقدام ، كان الطريق مغايراً حيث يقتضى الأمر أن تسلك صالات متعددة توصلك إلى ممر بلورى شفاف تكاد ترى وجهك فيه بوضوح وقد سقف بخشب الصندل تتداخل معه شجيرات اللبلاب المزروعة على الأعمدة النحاسية الثقيلة التى أقيمت على طول الممر وقد علقت على رؤوسها ثريات صغيرة تمثل المصابيح القديمة والتى صممت بحيث تنثر ضوءها الملون وقد علقت على ذلك البلاط البلوري مخلفة بقع بديعة الألوان تلمع من بين يديك ومن خلفك ، بينما استقرت عدة مصابيح موزعة في أماكن متقاربة من أعلى السقف الخشبي لتحدث تموجات على أرضية الممر

عاكسة ظلال شجيرات اللبلاب التى تظهر على هيئة صور تتراقص على أطراف الممر وما أن ينتهى الممر حتى تجد نفسك في فضاء فسيح قسمت مساحاته بشكل هندسي رائع حيث انتشرت الحدائق في جهات متعددة تتوسطها نوافير مختلفة الأحجام وقد شذبت أشجارها على هيئة عصافير محلقة بينما زينت جنباتها بأزهار لاتنبت إلاّ في المناطق الاستوائية، كانت أزهارا قصيرة ذات تويجات مفلطحة تميل إلى اللون البرتقالي بينما كانت تجاورها أزهار محلية متعددة الألوان منها الأحمر والوردي والأبيض وقد وضعت في دوائر متعددة يحفها رخام مذ هب ، ويخترقها عدة ممرات بلورية يجرى من أسفلها الماء لتغذية تلك النوافير الموزعة بين الحدائق ، ويوازيها مشتل زجاجي جمعت به أنواع كثيرة من الزهور والنباتات النادرة والتى جمعت من [illegible] وكانت هناك مساحات واسعة تفصل ما بين الفنن المباشرة بالخلف وما بين البهو الذى [illegible] مستطيلة على الطراز الأوروبي [illegible] البهو الذي كنت أصل اليه مباشرة من خلال طريق تحفه أشجار الموز والمانجو وكروم العنب .. مدخل البهو مغطى بسرداق صنع على هيئة نصف اسطوانة مقلوبة من خشب الزان مغطى بطبقات حريرية متداخلة الألوان بتناسق جمالى فريد وعلى جنباته علقت لوحات فنية باهظة الثمن وفرش بسجاد شيرازي دقيق العقد ذو خيوط حريرية، وقد تفرع هذا السرداق إلى عدة طرق كل طريق ينتهى بباب إلكتروني يوصلك إلى غرف مختلفة من هذا البهو يقف عند كل باب خادم يحمل مبخرة ينز منها بخور كمبودي.. كان الخدم يبزغون من بوابات متفرقة وهم يحملون الأطباق المتنوعة من مأكولات ومشروبات .

وقفت أمام احدى المرايات لأصلح هندامى ومررت بيدى على شاربي

الكث لأهذب الشعيرات المتقافزة بعشوائية فشممت رائحة نفاذة ورفعت كم قميصي أتشممه فوجدت تلك الرائحة تسرى في كل بدني ، فشعرت بالمهانة.. كنت أسير في الممرات المؤدية إلى صالة الاستقبال بتخاذل وابتسامة متسعة أشد بها وجهي لأبدو واثقا من خطواتي المتعثرة . شعرت بالضآلة حينما دخلت ولم يلتفت إليّ أحد بالرغم من السلام المرتفع الذي ألقيته على مسامع الحاضرين المتحلقين في مجموعات متناثرة يتخللهم الخدم حاملين المرطبات المتنوعة .

كانت عيناي تبحثان عن سيد القصر وعندما لم ألمحه توجهت إلى مجموعة من رجال الأعمال كنت قد فرضت صداقتي عليهم منذ عدة أشهر ، وافتعلت الحديث عن مشروع وهمي رأس ماله با[illegible] طالباً النصح في الخطوة القادمة ، ولم يكن هذا التودد إلاّ مدعاة للسخرية المبطنة ، فانتقلت إلى التنكيت إلاّ أن دمي لم يسعفني بما فيه الكفاية لاستثارة ضحكاتهم ، وكنت كلما حاولت التداخل معهم نفروا مني فرد[illegible] كثيراً ، وأصغيت لحديثهم كثيراً إلاّ أن كل محاولاتي لم تفلح لأن أشعر باحتفائهم بي ، ولا أدري لماذا لازمتني رغبة أن أبدو مهماً ، فكنت أشير للخدم الحاملين للمرطبات بالاقتراب وعندما يقبل أحدهم أتعمد أن أطلب المشروبات الفاخرة التي تقدمها فنادق باريس الفخمة ظاناً أن الخادم سيعتذر لكنه يبادرني بلباقة مصححاً مقولتي :

- عفوا سيدي المشروب الذي طلبته تعودت فنادق هولندا تقديمه وليست فنادق باريس وسيكون بين يديك في لحظات .

وينسحب تاركاً ابتسامة رقيقة على فمه بينما يرفع جلسائي ضحكاتهم بتندر فج .. عندما أحضر الخادم المشروب الذي طلبته ولم أكن أعرفه

بالتحديد . فقط كنت أسمع به يتردد على أفواه بعض الوجهاء وعندما ارتشفت منه شعرت بمرارة جافة تعبر حنجرتي ولولا حيائي لركضت أبصق ما ارتشفته من هذا المشروب المنتن فابتلعته على مضض ، وأشرت لأحد الخدم فأقبل مسرعاً :

- أين السيد ؟!

- يجلس مع بعض الضيوف بالملحق

هززت رأسي بتروٍ ، فانسحب الخادم منحنياً فرفعت صوتي بقدر الإمكان محاولاً تفخيمه :

- أخبره أنني جئت .

مما حمل البعض من الحضور أن يلوى عنقه باتجاه هذا الصوت بتعجب، فأحسست بشيء من الغبطة تسرى في بدني ، فقد جرت العادة أن لا يسأل عنه إلا قلة قليلة من أصدقائه وماعداهم لا يجرؤ أن يحدثه ، فقط يكتفى بالسلام والإنحناء باحترام له دون أن يحدق بوجهه لذلك وجدت أن سؤالي عنه بهذه النبرة يحملني إلى مصاف أولئك القلة من أصدقائه المهمين .

اعتراني ذلك الشعور اللذيذ فتصورت أن الكثيرين من الحضور أخذ ينظر إليّ بكثير من الاحترام مغيرين تلك النظرة التى ابتدروني بها مع مجيئي ، وكنت مصمماً في داخلي أن أصبح سيدا تنحنى له الرؤوس مهما كلفني ذلك من عنت ومثابرة .. نعم لن أدع الظروف تقهرني ، فلقد أمضيت سنوات وأنا أتقرب منه ، وحان الوقت لكى أجنى ثمرة تلك الأيام الطويلة التى قضيتها أدبج له المديح ، وأتقبل إهاناته المتكررة بضحكة منفرجة ، بل وأشكره في أحيان كثيرة لأنه اصطفانى دون سواى بمزاحه وتنكيته ، كنت أمتلك مقدرة فذة لاستقبال إهاناته وتعليقها كأوسمة على صدري ، هذا

الخضوع المتناهى قربني منه كثيراً لدرجة أن يصطحبنى معه إلى أي جهة يذهب إليها أو يقصدها للسياحة والترفيه عن النفس ، فخلال رحلاتنا أتحول إلى عبد يسمع فيطيع ، وكم من مرة مسحت بصاقه من على وجهى وأنا أبتسم ، لقد تعلمت أن بصاق السادة والوجهاء هو تكريم ، ويجب المفاخرة به .. ولولا ذلك الخضوع والإنحناء لما وصلت إلى هذا الوضع المرموق الذي أحسد عليه من قبل الكثيرين الذين يعرفون من أين قدمت ، وكيف كان حالي قبل الارتباط بهذه الشخصية التى تجعل كل الأبواب مفتوحة لمجرد معرفتك بها ، فكيف بك وأنت صفيه ، ليس هذا فقط بل والوحيد الذي يشتمك في أي وقت يشاء وغالبا يسترضيك بهدية تفوق إهانته بمراحل .

تعرفت به من خلال أسرة زوجتي ، فقد كانتا تربطهما صلة قرابة وإن كانت بعيدة إلاّ أنه كان دائم السؤال عن إكمال ذلك الزواج ، لكن هذه القسمة التى لم يكتب لها النجاح لم تبعده عنهم وظل على اتصال بهم ويساعد كل من يأتى من طرفهم ، وقد دفعتنى إليه زوجتى توصيه بالاهتمام بى فرحب بذلك ومنحنى اهتمامه . وإن ظلت وعوده معلقة لم يُنَفّذْ منها شيء ، وكان آخر وعوده أن يستخدم نفوذه لكى يرسى علىّ مشروع إنشاء مستشفى حكومي كبير، وها أنا أترك جثة أبي في السيارة من أجل إتمام هذا المشروع . كانت علاقته بى علاقة السيد والخادم لذلك لم أحظى باحترام أصدقائه ولم أكن أذهب إليه إلاّ بعد أن تهاتفه زوجتى، فأسمع قهقهته العميقة تنز من سماعة التلفون وهو يردد :

- من أجلك فقط

فتتمطى زوجتى في حديثها وتختم محادثتها :

- الله لا يحرمنى منك وتستعجلنى في الذهاب إليه ، كنت غالباً أجلس

في هذه الصالة لوقت طويل دون أن يسمح لى برؤيته فاظل صامتا بينما يكون الحضور منهمكين في الأحاديث المختلفة ، وعندما أعود دون رؤيته توبخنى زوجتى وتنعتنى :

- أنت كالحطب لا تصلح لشيء سوى الاحتراق

وقد أوصتنى أن أتحدث مع من أجد وأشعرهم بأننى مهم لكى أدخل ذلك العالم المخملي، وعلى سيرة زوجتي فهي تكبرني بتسع سنوات تقريباً كانت الصدف وراء زواجنا فقد كنت أعمل في إحدى مؤسسات العطور بائعاً ويبدو أننى أعجبتها فأخذت زيارتها تتكرر إلى المحل ثم تطور الأمر بأن أذهب بما تطلبه إلى ڤيلتها ، وأخذت تلمح بأن بمقدورى الارتباط بها وقد عمدت إلى فتح مؤسسة صغيرة لى بإسمها كنت أديرها لها ، وعندما انتعشت قليلاً طلبت أن أتقدم إلى أهلها طالباً يدها وأوصتنى أن أخبرهم بأننى رجل أعمال وليس لى أحد في هذه الدنيا ، وتم الزواج وكان شرطها الأساسي أن أنسى كل الماضى وما يحمله وأن أقذف بمشاعرى على عتبة تلك الڤيلا الفاخرة التى قدمت لنا من أبيها كهدية زواج .

مضى على هذا الزواج أربع سنوات نسيت فيها كل الماضى ولا أدرى كيف توصل أهل تلك الحارة البائسة إلى عنواني ليعلمونى نبأ موت أبي .

كانت رائحة الكافور لا تزال عالقة بيدي وثيابي مما جعل أحد الحضور يتهكم بي :

- هل تتطيب بتراب المقابر

فتضاحك من كان قريباً منا مما حفزه لأن يطلق العنان للسانه في حبك النكات حولي .. كنت قادراً على رد إهانته لكنني كنت أحفظ نصيحة زوجتى حين قالت :

- ... في تلك الطبقة عليك أن تكون طبلاً يستجيب لأي قرعة ويمنحها نغمة تتوافق مع ما تجيده تلك اليد القارعة لكي تكون دائماً قريباً منهم

ومن أجل تلك النصيحة التى أثبتت جدواها منحته فرصة إضافية بإكمال نكاته السمجة ، وكنت أفتعل الحركات الغبية التى من شأنها إضحاك المتجمهرين حولنا ، وعندما مل الحضور من نكاته وحركاتي الغبية انقلبوا إلى أماكنهم ، يتبادلون الأحاديث أو اللعب بالورق .

أمسكت بالعديد من الخدم وكل واحد أساله عن سيده ولا أنسى أن أصيح به عند مغادرته لى :

- اخبره أنني جئت

ولكثرة تكرار هذه الجملة أصبح الخدم يرددونها دون أن يستجيبوا لإشاراتى المتلاحقة بأن يقبلوا :

- سنخبره أنك جئت

تجاوز الليل منتصفه ليقودنا رئيس الخدم إلى صالون الطعام حيث امتدت السفرة على مسافة عشرين متراً ، وقد استقر عليها خمسة عشر طبق كوازي وأصناف متعددة من المقبلات والمأكولات والمشروبات وأنواع مختلفة من الفواكه، وانحدر الحضور صوب تلك المائدة كالسيل يمضغون ويتحدثون في آن واحد .

وكنت كلما اخترت كرسياً، اعتذر مني رئيس الخدم بأدب جم بأنه محجوز لأجد نفسي في نهاية الأمر أقف على تلك الرؤوس المنكبة على الطعام ، كان منظري يدعو للرثاء حيث لم أستطع التراجع إلى مكاني أو الجلوس على مائدة الطعام ويبدو أن منظري كان محزنا فقد أشفق على أحد الخدم فسارع باحضار كرسي إضافي لأجلس في زاوية منحرفة لا تمكن يدي

من الوصول إلى شئ سوى العيش الموضوع على جنبات المائدة فجلست أمضغ العيش محاولاً الوصول إلى بقية الأطباق مما حمل الذي يجاورني أن يرفع صوته متأففا :

- لقد أذيتنا بيدك وروائحتك

فاعتذرت منه بأدب جم ، وأقسمت أن أترك مكاني ليهنأ بعشائه في محاولة لكسب وده فوافقني بنبرة جافة :

- تفعل خيراً

وأمام هذه الجملة الباردة الجافة تنحيت جانباً، وافتعلت تخليل أسناني وتخليصها مما علق بها من لحم ، ليسارع أحد الخدم وينحني بقرب أذني هامساً :

- ليس من اللائق - يا سيدي - أن تقوم بهذا الفعل أثناء تناول الآخرين لطعامهم

فوافقته باعتذار بليد، وسألته بنفس تلك النبرة الفخمة :

- ألم تخبر سيدك بأنني جئت ؟!

فابتسم في وجهي وعاد إلى مكانه كتمثال برونزي وضع في أحد المتاحف الفخمة ، كان منظري مثيراً للضحك وأنا أقتعد خلف ظهور الناس بينما هم منهمكون في أكل مالذ وطاب ، لذلك تحركت باتجاه المغاسل المتراصة في الجهة الأخرى من صالون الطعام ، كان هناك اثنان من الخدم يقوم أحدهما بمناولتك الصابون بينما يظل الآخر منتظرا انتهاءك ليرش بين يديك ما تشتهى من عطر وضع على فترينة تجاور تلك المغاسل التى جلبت من إيطاليا وصنعت من السراميك النقى على هيئة المغاسل القديمة بينما صنعت صنابيرها من النحاس الخالص ورشت بماء الذهب ، لم أكن أرغب في غسل

يدي ولكنني حين تذكرت رائحة يدي المشبعة بالكافور تناولت قارورة عطر ورششت راحة يدي بكميات كبيرة ، وبعد أن شممتها مراراً قررت أن أسير بين ممرات البهو فلم أكن راغبا في العودة إلى الصالة التى كنا نقتعدها فأخذت بالسير بين الممرات أتطلع إلى تلك اللوحات وبعض الأدوات الأثرية التى كانت تزين جنبات الممرات وزواياها والتى جلبت من مزادات عالمية وكل قطعة منها تمثل ثروة ، دفعت عدة أبواب وأنا أسير بين تلك الممرات ، فوجدت نفسي أقف مباشرة في إحدى الصالونات الكبيرة والتى توسطتها مائدة دائرية كبيرة جلست عليها مجموعة من الرجال والنساء كان من بينهم سيد القصر ، ارتبكت قليلا ولكنني سرعان ما خطوت باتجاههم لألمح سيد القصر يشير لأحد الخدم بابعادي ، وقبل أن يصل الخادم صحت :

- لقد جئت قبل العاشرة يا سيدي .. حسب الموعد

اكتشفت أنني ارتكبت حماقة ما ، فقد جذبني الخادم بشدة ، و هو يتمتم بصوت منخفض :

- كيف دخلت إلى هنا ؟!

وجذبني بلطف :

- أرجوك هذا المكان لا يدخله أحد

وزجر أحد الخدم الواقفين بين ممرات البهو :

- ألم أقل لك أن لا تتحرك من أمام هذا الباب

ولم يمهله لأن يبرر موقفه بل صاح به :

- اصطحب السيد إلى صالون الضيافة

فقادني ذلك الخادم معنفاً :

- سوف تتسبب في أذيتنا جميعاً

تجاوزت الساعة الثانية صباحاً وأنا لازلت أمسك بكل خادم على حده ، وأهمس حينا وأرفع صوتي حينا أخر:

- أخبر سيدك أنني جئت

حتى أصبحت هذه الجملة مدعاة للضحك من قبل الحضور والخدم الذين يبتسمون ابتسامة أقرب للسخرية ويمضون متمتمين :

- سنخبره يا سيدي

وبعد أن دارت على الحضور كؤوس المرطبات والشاى، وقف رئيس الخدم معتذراً للحضور نيابة عن سيد القصر :

- يبلغكم سيدي عن أسفه لعدم تمكنه من رؤيتكم هذا المساء، ويبلغكم أن من يريده فليكن بالغد

فانسل الحضور الواحد تلو الآخر ، ولم يتبق بذلك البهو الكبير سواى والخدم الذين حاولوا بشتى الطرق أن أمضى لكنني أصررت على رؤية سيد القصر ، وبعد مضى ساعة رأيته يقف أمامي ويحدق بي بضيق :

- ماذا تريد ؟

- لقد جئت حسب الموعد

- أوه لقد نسيت ، في الغد أستطيع أن أتحدث معك ، ولا تنسى أن تبلغ تحياتي لزوجتك ، أما الآن فباستطاعتك الانصراف

أحسست بغبن شديد فاصبغت عليه كل النعوت التي يحبها ، ورددت :

- ولكنك حددت هذه الليلة دون سواها

فرمقنى بنصف عينه :

- أعلم ذلك .. والآن ماذا تريد

فاعتذرت منه بارتباك :

- لا شئ سوى رضاك

- إذاً اذهب قبل أن أغير رأيي فيك

فتمتمت بضيق :

- كما تشاء يا سيدي

عبس بوجهه وأخذ يتشمم بأنفه ورفع صوته لرئيس الخدم :

- ما هذه الرائحة العجيبة التى تملأ المكان ؟!

فأشار رئيس الخدم باتجاهي ، فرمقني سيد القصر بازدراء :

- أتريد أن تصبح رجل أعمال وهذه رائحتك .. اغتسل جيدا حين تأتى إلى هنا

ومنحني ظهره واتجه نحو القاعة المنزوية والتى ضجت بأصوات غنج نسائي طروب .

* * *

خرج يجر قدميه بتخاذل فيما كانت الساعة تسير ببطئ نحو الثالثة والثلث صباحاً ، قطع ممرات وساحات القصر وكل الإهانات تبزغ في مخيلته وتستحيل إلى ضجيج مرتفع ، كان يتكلم بصوت مرتفع أثناء سيره مما حمل الخدم والعمال على كتم سخرياتهم بغمز كانوا يتبادلونه فيما بينهم .

وجد نفسه خارج القصر وهو يدير محرك سيارته ليأنس قليلا بتلك الأغنية :

ترى ما جى على بالى

أشوف عيونك الحلوة

فجأة أحس بالاختناق لرائحة الكافور الدبقة التى تشبعت بها سيارته ، فأرخى زجاج النافذة وانطلق صوب المقبرة .

بلغ بوابة المقبرة وحمل جثمان أبيه بين يديه وأخذ يطرق البوابة بقدميه، انفتحت البوابة فرأى جثة ضخمة تقف في وجهه ، فبادرها بالسلام ، فرد عليه باقتضاب ، فحاول الدخول ، فوقف القبار في طريقه :

- إلى أين ؟!

- لأتنزه

- احترم حرمة الموتى

- وأنت ألا ترى ماذا أحمل

- لم أتعود أن أرى ميتا يحمل هكذا ولا يسير في جنازته أحد

- لا .. تعود

بهت للحظات ، وعندما صرخ به :

- سينقسم ظهري .. فأنا لم أعد أقوى على حمله

فنادى على أحد أعوانه ، وأمره بفتح أحد القبور القديمة ، والتفت اليه مخاطبا :

- أين أوراق دفنه ؟!

تلعثم ، ورد بارتباك :

- هه .. في الحقيقة نسيتها

- إذاً عد بميتك حتى تستوفى أوراقه

وصرخ بصاحبه :

- عد إلى نومك

فصرخ به محتداً :

- ولكنني لا أستطيع أن أعود به ، أعدك أن أجلبها بالغد

فرد عليه بغير مبالاة :

- وأنا أعدك أن أدفنه في الغد

وأغلق تلك البوابة في وجهه ، فعاد يحمل جثمان أبيه ، وألقى به في مؤخرة السيارة ، وانطلق مخترقاً الشوارع وتلك الإهانات تتزاحم برأسه .

- ماذا أصنع الآن ؟!

ستغضب وستنعتني - كالعادة - بأنني حائط مائل لا يمكن الاستناد عليه فهي ما فتئت تردد بأنها أضاعت عدة فرص كانت ستمكنها من الارتباط برجل أكثر مقدرة على توفير حياة لاتقة بها ، في أحيان كثيرة كانت تلعن حظها الذى أوقعها برجل وضيع حاولت أن تصنع منه رجلاً وجيها لكن عرقه البائس يأبى الابتعاد عن الأرض كثيرا .

أعلم أنها ستغضب لمجرد معرفتها بأننى توجهت إلى حينا القديم ، فكيف لو علمت أننى أحمل جثمان أبي .. حتما ستطردني من الفيلا وتكسر خلفى ألف جرة ، وربما تجردنى من كل هذه الأبهة التى أتمتع بها .. لقد بدأت تمل من كل تصرفاتي ، وإذا دخلت بجثة أبي فحتماً ستقذف بي للشارع مرة أخرى لأعود إلى التسكع .

جثمان أبي لا يزال قابعاً بالخلف ولا أدري ماذا أصنع ؟! .. هل أظل أذرع الشوارع إلى أن يستيقظ الناس من مراقدهم وأذهب لأخذ أوراق دفنه من جيراننا القدماء ، أوه .. لو عدت به إلى حينا القديم فلن أجد من يستقبلنى في هذا الليل . وإن استقبلونى فلربما تمتد يد أحدهم لتهشم رأسى لإهمالى المفرط بأبى حيا وميتا . لا لا عليّ أن أقوم باستخراج أوراق دفن جديدة . . وكيف سيكون ذلك ؟! لابد وأن الدكتور الذى سيمنحني هذه الشهادة سيطالب برؤية الجثة ، فماذا سيقول حين يراها قد كفنت وحنطت ، ربما يتبادر إلى ذهنه أن المتوفى لم يمت ميتة طبيعية ، وإذا لم يتبادر إلى

ذهنه ذلك سيتعجب من كون الجثة قد كفنت دون أن تحصل على شهادة وفاة، واذا أخبرته بأن من قام بذلك أناس بسطاء لا يعرفون أهمية شهادة الوفاة سيطلب أوراق أبي الرسمية وأنا لا أحمل تلك الأوراق آه .. ماذا أصنع ؟! .. عليّ أن أعود إلى حارتنا وأطلب أوراقه .. أوه .. ماذا سيقولون أولئك الأغبياء .. سيتعجبون بأنه لم يدفن إلى الآن .. لأقول لهم بأنني قد دفنته وانما جئت لطلب أوراق دفنه لأنني تعهدت بجلبها للمسئول عن المقبرة .. نعم يجب أن أذهب إليهم .. لكن الذهاب إليهم سيوقعني في مشكلة آخرى فليس من المعقول أن أتغيب عن البيت كل هذا الوقت فهي تنتظرني لكى أبشرها بتمام الصفقة ، وسيكون الأمر صعباً إن أخبرتها بأنها لم تتم وربما ترجع ذلك لأننى اهتممت بأبي وأغفلت الموعد .. هى لا تعرف بموت أبي ولأقول لها بأنني أمضيت بعض الوقت أمام الشاطئ .. ستضحك كثيراً وربما تبادر إلى نعتي بما لا أحب سماعه ، ولو أن الصفقة تمت لنسيت الموقف ، فقد أرجع سبب ذهابي للشاطئ ابتهاجاً بذلك ، أو أخبرها بأن نذرت أن أقذف بنفسي فى ماء البحر لأغتسل من الماضى نهائياً حينما أشعر بأنني قفزت إلى مصاف الوجهاء .. لعنة الله على الضعف :

- ماذا أصنع الآن ؟!

لابد أن أعود إلى البيت .. نعم لابد أن أعود وأستكمل اجراءات دفنه في الصباح واذا لم أتمكن من استخراجها سأذهب إلى جيراننا القدماء وأطلبها منهم .. نعم هذا هو الرأى السديد .

فجأة قفزت إلى مخيلتى صورة رجال الشرطة وهم يقفون بالشوارع للتفتيش ، ماذا سيكون وضعى لو لمحوا هذه الجثة .. هل سأجرؤ وأقول لهم أنها جثة أبي لم أستطع دفنها إلى الآن ، حتما سيعرفون الحقيقة ولن ألجو

من التوبيخ ، وإن لم يتحدثوا فإن عيونهم ستطلق كثيراً من اللعنات على ابن يهمل مواراة جثة أبيه .. ولكى لا أقع في مثل هذا الموقف على أن أسلك طريقاً يبعدنى عن عيونهم التى قد تتلصص وتلمح هذه الجثة المفرودة بالمقعد الخلفى عندها سيقع ما أخشاه .. وربما يتطور الأمر للتأكد من صحة أقوالي فتعلم زوجتى بما حدث وترجع عدم استكمال الصفقة لاهتمامي بدفن أبي عندها لن تغفر لي مهما أقسمت لها .

أعلم أن هيئتى وسيارتى لن تجعل رجال الشرطة يشكون بي للحظات ولكن الاحتياط واجب فقد أصادف أحد أولئك المحتزمين بمبدأ المساوة عندها سيقع ما لا يحمد عواقبه ، سلكت طريقاً مغايراً يخترق الأحياء الراقية ويصلنى للمنزل دون المرور بنقاط التفتيش الموزعة على مداخل ومخارج المدينة .

بلغت الفيلا بعد أن أمضيت وقتا أطول من المعتاد ، فأوقفت سيارتي جانباً ، وغطيت جثمان أبي بقطعة الفرو ، وأغلقت الأبواب جيداً وصعدت إلى البيت .. كانت تنتظرني عند المدخل :

- بشر

رددت إليها بقبلة محاولاً أن لا أستفزها :

- وعدني في الغد

مطت شفتيها وجفلت بحنق :

- أظنك لم تذهب في الموعد المحدد

- بل ذهبت ولكن ..

فقاطعتني بحدة :

- ولكن متأخراً ، فلابد وأنك انشغلت بأبيك المتوفي

- ومن ذا الذى أخبرك ؟

- لقد جاء حثالة حيكم للعزاء فطردتهم

حاولت أن أبدى تذمرى من فعلتها لكننى تراجعت أمام ثورتها :

- لم يعد باقياً سوى استقبال تلك القمامات

وجفلت بحنق وصاحت :

- من أعلمهم بيتي .. يبدو أنك لم تتخلص من ماضيك البالي

فأقسمت لها بأنني لم أخبر أحداً بمكاني ، فصاحت :

- لقد جاءت تلك القمامات بعد الساعة الحادية عشر عندها أيقنت بأنك لن تذهب في موعدك

- لم يستغرق ذهابي سوى ساعة وانهيت كل شئ .. وقد ذهبت في الوقت المحدد فصاحت بضيق :

- كلما حاولت تلميع وجهك أعدته للأوحال

ولت عنقها وهى تلعن حظها العاثر ، بينما ظللت واقفاً أنتظر موجة أخرى من غضبها الدافق ، تطلعت صوبي باشمئزاز :

- لا أريد هذه القمامات في بيتى .. أفهمت ؟!

هززت لها رأسى موافقاً وحاولت الاقتراب منها لتقبيلها فدفعتنى عنها بقرف :

- ألا تشم رائحتك ؟!

فتراجعت بانكسار فقطبت حاجبيها وأردفت ساخرة :

- يبدو أنك حنّيت لتلك القاذورات فاحتضنت كل واحد منهم على حده حتى غدت رائحتك خليط من الروائح المقززة والتى تثير القيء

وعندما وجدتنى صامتاً فتحت عينيها على اتساعهما :

- أو ذهبت إلى القصر بهذه الرائحة ؟!

وصاحت بانفعال :

- يالفضيحتي !!

الميزان لا يستقر فحين تسخر من قوم يسخر منك آخرون ، إن بشاعتنا تنهض حينما نحاول أن ننفر من واقعنا .. سالت هذه الجملة بمخيلتى فشعرت أمامها بضآلة وتمنيت أن أمارس حقى كزوج ، أو أن تحترم رغباتى .. المهانة تلاحقني أينما اتجهت .. هل يجب على أن أظل هكذا ؟! .. لابد أن أعمل أي شيء كي استعيد ما خسرته .. أوه .. ما أكثر الخسائر!!

سمعتها تصرخ :

- لماذا تقف صامتاً ؟!

فكرت أن أمهد لادخال جثة أبى لداخل البيت بدلاً من أن تظل مقذوفة بداخل السيارة ، فقلت :

- يبدو أنها علقت بي رائحة الجنازة عندما كنت أحملها

وصمت لبرهة فوجدتها تتطلع إليّ باحتقار فأردفت بتودد :

- تمنيت أن تخرج جنازة أبي من بيتى

فصرخت باشمئزاز :

- لم أقبل بمعزينه فكيف أقبل بتلك الجيفة التى كانت تدب على الأرض .

كتمت غيظي :

- حسناً .. أليس من اللائق أن تعزّينى

أشاحت بوجهها ولوت فمها :

- لقد عزّيتك فيه يوم قبلت بزواجك مني فلا داعى أن تعيد إلى ذهنى تلك الحماقة التى ارتكبتها باقتراني بك

فأردفت :

- نعم .. لقد مات منذ ذلك اليوم

توجهت إلى غرفة النوم راجياً منها إيقاظى في تمام الساعة التاسعة ، فصرخت محتدة :

- لا تقلق منامي يكفى أننى انتظرتك كل هذا الوقت وكنت أتوقع أنك أتممت الصفقة ولكنك كالعادة مخيب لكل الآمال

ثم أردفت باستغراب :

- لقد تعودت أن تستيقظ متأخراً فما الداعى لايقاظك ؟!

كنت على وشك أن أخبرها بجثة أبي المقذوفة بالخارج لكنني أمسكت عن ذلك في اللحظات الأخيرة وتمتمت :

- يوجد لدى بعض الأعمال

- وهل جد جديد .. فموظفين المؤسسة هم من يقومون بجميع الأعمال ، وعملك يقتصر أن تذهب اليهم في المساء

ضقت وكدت أنفجر صارخاً بها لكن ذلك الخوف الذى ينتابني أمامها عاد يتطاول بداخلي ، فرددت بخنوع :

- أريد أن أستيقظ مبكراً وكفى

- إذاً لا تأمرنى ، وضع بجوارك منبهاً

- ولكنك تعرفين أن نومى ثقيل

فصفقت بيديها وطوحت بهما في الهواء :

- وهذه إحدى العيوب التى أقعدتنا في الخلف ولو كنت نشيطاً لأصبحنا في الواجهات الأمامية بدلاً من أن أظل أسترضى لك أقاربى وأرحامى في جذبك إلى مصافهم .

وخرجت إلى غرفة أخرى لأتوجه إلى غرفة النوم حين كانت ساعة الحائط تشير إلى الساعة السادسة صباحاً ، فكرت في البقاء مستيقظاً لحين الإنتهاء من دفن أبي .. كان الإرهاق قد بلغ منى مبلغاً عسيراً ولكى لا أستسلم له ضغطت على أحد الأجراس الخاصة بالخادمات وحين جاءت إحداهن طلبت منها أن تصلح لى فنجان قهوة وقبل أن تأتى كنت قد ارتميت على فراشى .

استيقظت في تمام الساعة السابعة مساء مفزوعاً، وركضت إلى سيارتي وما أن فتحت الباب حتى فارت رائحة نتنة فقد كان الجو حاراً والشمس حارقة ساهمت في سرعة عطب الجثة ، وكان الوقت ضيقاً بين أن أتوجه إلى المقبرة وبين حضور الموعد المحدد لإتمام الصفقة ، فقررت الذهاب إلى القصر أولا ومن ثم إلى المقبرة .

فى وسط البهو جلس سيد القصر يتجاذب الحديث مع نفر قليل بينما توزع بقية الحضور على الكراسى المذهبة التى رصت بشكل منظم بحيث تجعل الجميع في مواجهة سيد القصر ، أقترب منه منحنياً :

- كما ترى يا سيدى لقد جئت في الموعد المحدد

نظر إليه مبتسماً :

- نعم في الوقت المحدد ولكن يؤسفنى أن أبلغك أن الصفقة ذهبت لشخص أخر

تخشب للحظات وأخذ يتمتم :

- ولكنك وعدت المدام أن تكون الصفقة لى

- ومن أجل خاطرها سأعوضك بصفقة أخرى

- متى ؟!

- سأخبرها بنفسى عندما يحين الوقت

ثم نظر إليه ساخراً :

- يبدو أنك لم تغتسل من ليلة البارحة فلازلت تحمل رائحة القبور، والأفضل الآن أن تذهب وتغتسل وتأتى لاستكمال السهرة

خرج من القصر ليجد نفسه يذرع تلك الشوارع الفسيحة بينما كان الليل ينشر تفاصيله الغامقة على وجه المدينة ، وفي المكان المحيط بالمقبرة يزداد الليل وحشة وضراوة ولم يكن يعذبه سوى تلك الرائحة النتنة التى كانت تنز من جثة أبيه التى تخشبت بين ذراعيه كان يسير بها وهو يذرف كثيراً من اللعن على كل السادة والوجهاء الذين لا يقيمون لوعودهم ظلاً ، كانت تلك الرائحة تزداد في نتانتها فأنزل الجثة على الأرض وكمم فمه بشماغه وسار باتجاه بوابة المقبرة .. كان يقطع الشارع بخطوات متباعدة وثمة خلاء يتسع بداخله تصفر به رياح الانكسار والهزيمة ، كاد يتعثر في مشيته حين اصطدم بحجر ناتئ فاشتاط داخله باللعن وفكر أن يقذف بحمولته ويمض هارباً .

عندما بلغ بوابة المقبرة أنزل جثة أبيه وطرق تلك البوابة طرقاً منتظماً وظل واقفاً ينتظر أن تطل عليه قامة ذلك القبار الضخم كان يفكر كيف يقنعه بإحضار أوراق دفن المتوفى في وقت لاحق فقرر أن يخاطبه بلين ويرجوه أن يقوم بدفن تلك الجثة ريثما يتمكن من إحضار تلك الأوراق وأخرج بطاقته ووضعها بجيبه العلوى وانتظر ، ظل يطرق الباب دون أن يجد إجابة لطرقه، فترك جثة أبيه بجوار البوابة وأخذ يسير بمحاذاة ذلك السور المنخفض والذي تطل من على جدرانه أشجار السدر والعشرق كانت ثمة غرفة في أخر السور مضاءة فتوجه إليها وطرق نافذتها وانتظر ، وانفتحت تلك النافذة محدثة صريراً مزعجاً ليطل من خلفها ذلك القبار الضخم ذو

الملامح الجامدة وإن كانت عيناه تشع ببريق منطفئ ولم يتبق منه سوى وميض باهت . كان يغالب نوماً ثقيلاً لذلك بقيت عيناه شبه مغلقتين وعندما رأى الطارق تأفف بضيق :

- أهذا أنت .. لقد أزعجتني

اعتذر له بتودد محاولاً كسب وده :

- أرجو أن تساعدني لقد مضت عليه ليلتان حتى نتن

- ولو مضى عليه شهر فلن أقبله بدون أوراق رسمية

- أعدك أن آتي بها في صباح الغد وسوف أعطيك كل الضمانات على صدق قولي

ومد يده إلى جيبه العلوى وأعطاه هويته :

- خذ هذه هويتى وإذا لم أحضر لك أوراق دفنه الرسمية أتحمل كل المسئولية وإن أردت أوقع لك على أوراق بذلك سأفعل

فرد عليه القبار بضيق :

- هذا لا يكفى كما وأنك قد وعدت ليلة البارحة باحضار الأوراق

- ولكننى لم أتمكن من ذلك

- وأنا لن أتمكن من مساعدتك

وأغلق نافذته بعنف ليعود إلى جثة أبيه يملأ بها ذراعيه ويعاود السير باتجاه سيارته الواقفة على بعد ، كان يسير مختنقاً بتلك الرائحة التى تفوح من جثة أبيه قال في نفسه :

- لو بقى معى فلن يدفن

فكر مليا بأن يقذف حمولته ويمضى هاربا .

١٤١٥/٣/١٢هـ

□□□

الفهرس

أدب

هذه الليلة الطويلة	(مسرحية)	د. أحمد صدقى الدجاني
حكايات الذيب رماح	(قصص قصيرة)	خيرى عبد الجواد
ليس هناك ما يبهج	(قصص قصيرة)	عبده خال
لا أحد	(قصص قصيرة)	عبده خال
مملكة القرود	(مسرحية)	محمود عبد الحافظ
أحزان رجل لا يعرف البكاء	(قصص قصيرة)	خالد غازى
الشاعر والحرامى	(قصص قصيرة)	عزت الحريرى
رشفات من قهوتى الساخنة	(قصص قصيرة)	محمد محى الدين
فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	(دراسة)	محمد الطيب

شعر

من فصول الزمن الرديء		درويش الأسيوطى
إذهب قبل أن أبكى		د. لطيفه صالح
اللعبة الأبدية ...	(مسرحية شعرية)	محمد الفارس
غربة الصبح		محمد الفارس
الغربة والعشق		مجدى رياض
عطر النغم الأخضر		عمر غراب
غابات		نادر ناشد
السماء تعتزل النبوءة		نادر ناشد
هذه الروح لى		نادر ناشد
فى مقام العشق		نادر ناشد
ندى على الأصابع		نادر ناشد

● **بالإضافة إلى العديد من الإصدارات** ●

كتب سياسية - سلسلة قومية - سلسلة إسلامية - كتب متنوعة

● **خدمات إعلامية وثقافية "إشتراكات"** ●

ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة

الآراء الواردة بالإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز

● ماالذى يجعل الناس تعساء ؟ بل لماذا سلبوا القدرة على البهجة والفرح ؟

● هل لأنهم مازالوا ينتظرون تفجر المزيد من الثروات كى يشعروا بالأمان؟

● وهل الثروة تغير من نفوس البشر فتجعلهم أشراراً وهم بطبيعتهم خيرون ؟

● وهل تصل المأساة إلى ذروتها فيعجز الإبن عن دفن جثة أبيه حفاظاً على مشاعر زوجته صاحبة العز والجاه حتى تتعفن جثة الأب والإبن وينتشر العفن ليصيب كل شىء .

● هذه القصص لا تدّعى البحث عن إجابات جاهزة سلفاً بل تكتفى بطرح الاسئلة ، لكنها أسئلة تضرب بجذورها فى أعماق النفس الانسانية بحثاً عن الجوهر النفيس المختبئ فى القاع ، والمطمور بفعل واقع يومى شرس .

انها كتابة تبحث عن هويتنا الضائعة وسط واقعِ مكرس للرداءة .



مركز
الحضارة
العربية
للاعلام والنشر